مرتفعات وذرينج

إميلى برونتى

ترجمة: صبرى الفضل



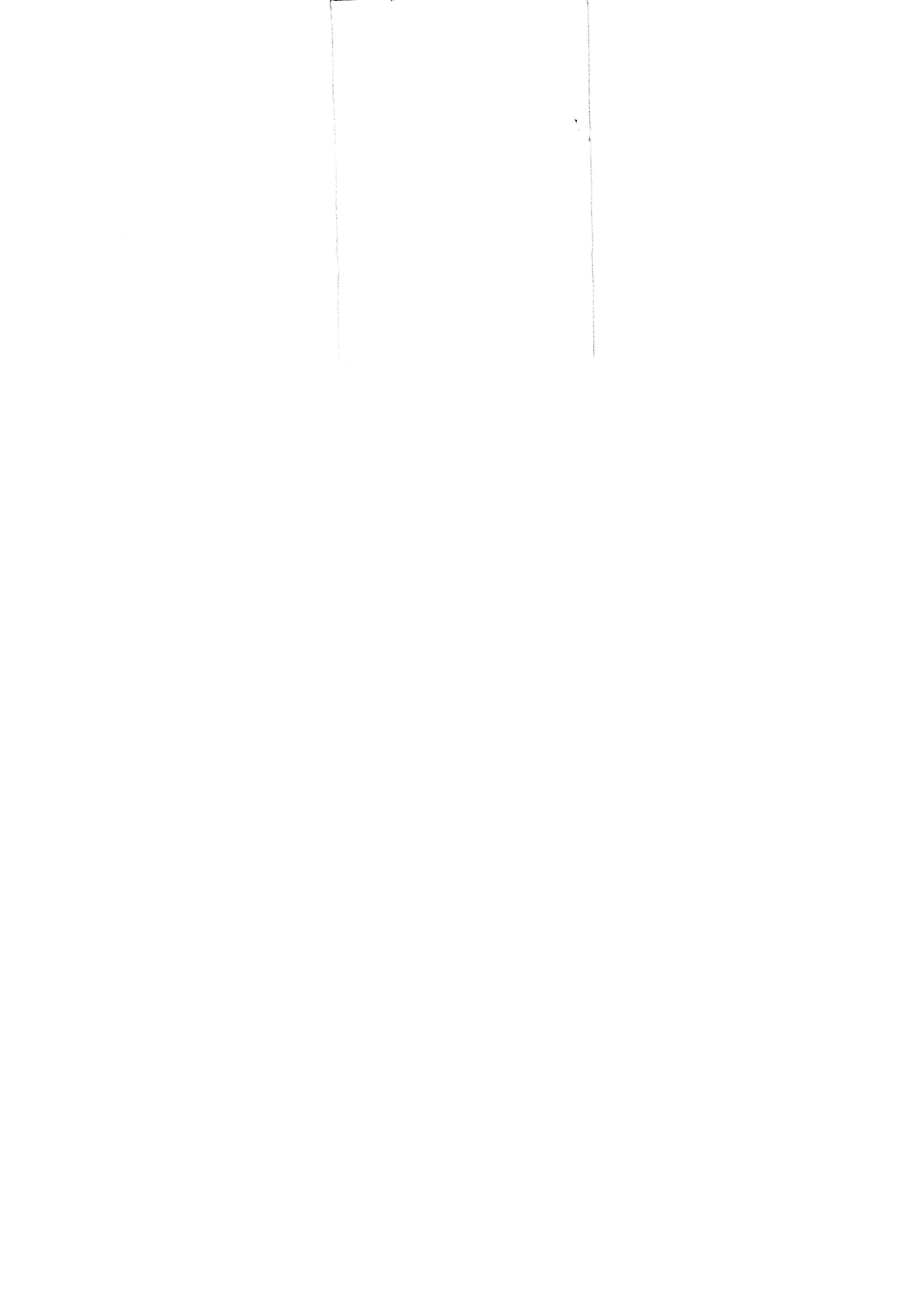
مهرجان القراءة للجميع ٩٧
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأدب العالمى للناشئين)

مرتفعات وذرينج
إميلى برونتى
ت: صبرى الفضل

لوحة الغلاف :
للفنان: جمال قطب
تصميم الغلاف
الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى
المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مرتفعات وذرينج





مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك



على سبيل التقديم . . .

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق .

د. سمير سرحان

المؤلفة والكتاب

ولدت اميلى برونتى فى ٣٠ يوليو عام ١٨١٨ فى عائلة موهوبة ، رقيقـــــة الحال ، وهى أخت شارلوت برونتى التى كتبت « جين اير » ٠

كان أبوها أيرلنديا يعمـــل راعيا بالكنيســـة الانجليزية فى هيوارث ، وهى منطقة منعزلة ، موحشة ، تقع بمقاطعة يوركشير ، التى ظل بها حتى وفاته ٠

تزوج من أمها عام ١٨١٢ ٠ وقد توفيت عام١٨٢٢، تاركة له أولادهما الستة : ماريا ، اليزابيث ، شارلوت، باتريك برانويل ، اميلى وآن ٠٠ وجعله هذا الوضـــع المتفاقم بالفقر وسوء الحظ مكتئبا صامتا كالقبور المجاورة

لمنزلهم المنقبض بالحزن • فهامت الأطفال فى البقـاع ، وأخذوا يسلون أنفسهم بالكتابة •

وكان فلاحو هذه المنطقة فى ذلك الوقت ، بعيدين عن الحضارة ، غلاظ القلوب ، عنيفين ، غير ودودين • وانعكس حب اميلى لهذا الجزء من البلاد بجماله الخشن ومعرفتها بأناسـه فى « مرتفعات وذرينج » روايتها الوحيدة ، التى ظهرت عام ١٨٤٧ فكانت كتابا فريدا فى نوعه ومازال •

ولقد روع القارىء بالعواطف المتأججة فى مرتفعات وذرينج ، لأنها عواطف متحررة من فساد الطبيعـــة البشرية •• فالعاطفة هوى متأجج مهلك ، ولكنها مجردة من أى تلوث مادى •

ويمكن القول بصفة عامة أن فى كتب الأخوات برونتى : شارلوت ، واميلى وآن ، يتكلم اللسان من خلال براءة القلب • وهن ككاتبات انجـــليزيات خلقن شخصيات نابضة بالحياة ، وحولن الأفكار المســـتورة

لوحدتهن الى عالم الشعر ، وأثرن فى مســار الرواية الانجليزية الحديثة ٠

ونظمت اميلى ، أيضا ، قصائد ذات نوعية عالية ، تدل على أنها كانت أصيلة فى تفكيرها وفى شخصيتها ٠٠ ولقد كتبت شارلوت عنها قائلة بأنهـا : « أقـوى من الرجال ، وأبسط من الأطفــال ، وذات طبيعـة مستقلة ! » ٠

وتوفيت اميلى عام ١٨٤٨ بمرض الرئة ، مثـل معظم اخواتها من قبلها ٠

— المترجم —

أحداث القصـــة

مرتبـة ترتيبا زمنيـا

١٧٥٧ : مولد هندلى ايرنشو · تذهب والدة نيلى دين الى مرتفعات وذرينج كمربيـة ، مصـــطحبة طفلتها معها

١٧٦٢ : مولد ادجار لنتون

١٧٦٥ : مولد كاترين ايرنشو

١٧٦٦ : مولد ايزابيللا لنتون

١٧٧١ : صيفا ، يحضر السيد ايرنشو الكبير ومعه الطفل هيثكليف من ليفربول ·

١٧٧٣ : ربيعا ، تموت السيدة ايرنشو الكبيرة ·

١٧٧٤ : يلتحق هندلى بالكلية ·

١٧٧٧ : أكتوبر ، يموت السيد ايرنشو الكبير • ويأتى هندلى الى البيت مع زوجته فرانسيس •

أواخر نوفمبر ، مغامرة كاترين التعسة فى مزرعة تراش كروس •

« الكريســتماس » يوم عيد الميلاد ، تعود كاترين للبيت • اذلال هيثكليف •

١٧٧٨ : يونيو ، مولد هيرتون ايرنشــو ، ابن هندلى وفرانسيس •

١٧٨٠ : صيفا ، تعد كاترين بالزواج من ادجار لنتون ، ويختفى هيثكليف •

أول مرض لكاترين •

وفاة السيد والسيدة لنتون •

١٧٨٣ : مارس ، يتزوج ادجار من كاترين • وتذهب الين دين (نيللى) الى مزرعة تراش كروس مع سيدتها •

سبتمبر ، هيثكليف يعود •

١٧٨٤ : ينـــاير ، مشـــاجرة بين ادجار وكاترين وهيثكليف ٠

يفر هيثكليف مع ايزابيلا ، ويتزوجها ٠

ثاني مرض لكاترين ٠

مارس ، عودة هيثكلبف وايزابيلا . هيثكليف يزور كاترين ٠

٢٠ مارس ، وفـاة كاترين ومولد ابنتهـــا كاترين ٠

٢٥ مارس ، دفن كاترين ٠ وهيثكليف يزور القبر ٠

٢٦ مارس ، ايزابيلا تهرب ٠

سبتمبر ، وفاة هندلى ، ويستحوز هيثكليف على مرتفعات وذرينج ٠

أكتـــوبر ، مولد لنتـــون ابن هيثكليف وايزابيلا ٠

١٧٩٧ : وفاة ايزابيللا
قيام كاتى بأول زيارة لمرتفعات وذرينج •
ادجار لنتون يحضر لنتون هيثكليف ، الذى يطالب به أبوه
١٨٠٠ : ٢٠ مارس ، زيارة كاتى الثانية للمرتفعات •
تبادل الرسائل بين كاتى ولنتون هيثكليف
فى الخريف ، يصاب ادجار لنتون بالبرد ويمرض •
أكتوبر ، زيارة كاتى الثالثة للمرتفعات
الأسابيع الثلاثة التالية ، تزور كاتى المرتفعات سرا •
١٨٠١ : أغسطس ، تقابل كاتى ابن عمتها لنتون فى البقاع •
يحصل هيثكليف على كاتى فى المرتفعات وتتزوج من لنتون •
سبتمبر ، وفاة ادجار لنتون. يزور هيثكليف قبر كاترين مرة ثانية • ويصبح لنتون

هيثكليف ، كوريث ، مالكا لمزرعة تراش كروس ولأراضى خاله ولماله ٠

أكتوبر ، وفاة لنتون هيثكليف ، تؤول ممتلكات لنتون الى أبيه هيثكليف ٠

نوفمبر، يؤجر هيثكليف مزرعة تراش كروس للسيد لوكوود لمدة سنة ، يقوم السيد لوكوود بزيارة المرتفعات ويصبح مريضا ٠

١٨٠٢ : يناير ،يغادر السيد لوكوود مزرعة كروس متوجها الى لندن ٠

تعود السيدة دين الى مرتفعات وذرينج ٠

الاثنين عيد الفصح ، كاتى وهيرتون يصبحا صديقين ٠

ابريل ، وفاة هيثكليف ٠

سبتمبر ، يزور السيد لوكوود مزرعة تراش كروس ، ومرتفعات وذرينج مرة ثانية ٠

١٨٠٣ : أول يناير ، يتزوج هيرتون ايرنشو من كاتى.

عائلة غريبـة

(نوفمبر ١٨٠١)

يرويها السيد لوكوود ، مستاجر مزرعة تراش كروس

الفصل الأول

ترحيب جاف

عدت لتـــوى من زيارة لصـــاحب المزرعة التى استأجرتها ، والذى سيكون جارى الأوحد لمسافة أميال عديدة · ولا أعتقد ، اننى كنت أسـتطيع فى انجلترا كلها ، أن يقع اختيارى على منزل ريفى أكثر بعدا عن المجتمع من مزرعة تراش كروس ·

والســـيد هيثكليف وأنا قرينين مناســبين فى مشاركة هذه العزلة · وعندما وصلت على جوادى اليه ،

حملقت عيناه السوداوان فى ريبــة من تحت جبهته السمراء ٠

فقلت :

ــ السيد هيثكليف ؟!

فأومأ برأسه ٠

ــ أنا السيد لوكوود مســـتأجرك الجديد لمزرعة تروش كروس يا سيدى ٠ لقد قمت بشرف زيارتـكم بعد وصولى مباشرة ٠

ــ أدخل !

تكلم وأسنانه مطبقـــة واســتمر مســـتندا على البوابة ٠ وعندما رأى حصانى يضغط بصدره عليها ، رفع يده ليفك سلســلتها ، ثم ســـار أمامى على الممر الحجرى مناديا ونحن داخلين الى الساحة :

ــ جوزيف ، خذ حصان السيد لوكوود ، وأحضر بعض النبيذ ! ٠

ففكرت :

ـ لابد أنه لا يوجد الا خادم واحد ، ولا عجب فان العشب ينمو بين الأحجار ، ويبدو أن الماشـــية هى الوحيدة التى تقوم بتقطيع سياج الأعشاب ٠

ويبدو جوزيف رجلا عجوزا سىء الطبع ٠ وهمهم وهو ياخذ حصانى بصوت مستاء :

ـ ربنا يساعدنا !

ومرتفعات وذرينج هو اسم منزل السيد هيثكليف. وكلمة « وذرينج » لفظة محلية تصف تهور الطقس فى هذا الجزء المنعزل من يوركشير فى وقت العاصـــفة ٠ ويمكن للانسان أن يحزر قوة ريح الشمال وهى تهب من فوق جانب التل مارة بالأشجار القليلة النامية بشـــكل فقير عند نهاية المنزل. وبجانب صف من الشجيرات ذات الشوك التى تمتد جميع فروعها فى اتجاه واحد وكأنها تتسول دفء الشمس ٠

والمنزل مبنى بشكل متين ٠ والنوافذ الضـــيقة

غائرة فى الجدار بشكل عميق ، والأركان مدعمة بحجارة كبيرة من الخارج ٠

وقبل أن أدخل توقفت معجبـــا ببعض الحليات والزخارف الحجرية الغريبة فوق الواجهة ، والتى رأيت من فوقها التـــاريخ « عام ١٥٠٠ » ، واسم « هيرتون ايرنشو » ٠٠ وكنت سأستفسر عن بعض التفاصـــيل الخاصة بالمكان الا أن المالك كان نافد الصبر ٠

وأوصلتنا خطوة واحدة الى غرفة جلوس العائلة ، التى يوجد على طرف واحد من جدارها صف وراء صف من الأطباق المعدنية الضخمة ، تعلوها أوانى فضـــية وكئوس للشراب تصل حتى الذروة ٠ ولم يكن هنـاك سقف ٠٠ وكانت هناك فوق المدفأة العديد من البنادق ذات مظهر شرير ٠

وكانت الأرضـــية من حجر أبيض أملس ٠ أما الكراسى فذات مساند عالية مطلية باللـون الأخضر ٠ وترقد فى الركن كلبة ضخمة مع صغارها ، وتلازم كلاب أخرى الأركان الأخرى ٠

ولا تعتبر الحجرة ولا الأثاث شيئا غير عادى اذا كانت تخص مزارعا بسيطا من مزارعى يوركشـــير ٠ أما السيد هيثكليف فكان يبدو غريبا عن بيته وغريبا فى طريقة معيشته ٠ انه غجرى أســـمر البشرة فى مظهره ، ولكنه جنتلمان فى سلوكه وملبسه : أقصد كأى جنتلمان من أصحاب الأراضى الريفيين ٠٠ ربمـا يهمل فى ملبسه نوعا ما ، الا أنه حســن المظهر ، أما التعبير المرسوم على وجهـــه فهو قاسى وعابس بعض الشىء ٠

واتخذت لى مقعدا بجوار المدفأة ، وقضيت دقائق قليلة من هذا السكون فى مداعبة الكلبة الأم لكســـب ودها ٠

فقال هيثكليف بخشونة وهو يدفع الحيوان بقدمه بعيدا بعد أن كشرت لى عن أسنانها كلها :

ـ من الأفضل أن تتركها فى حالها ٠

ثم عبر الى باب جانبى وصرخ ثانية :

ـ جوزيف !

همهم جوزيف فى الغرفة السفلية ، لكنه لم يحضر لذلك نزل سيده للبحث عنه ، وتركنى وجها لوجه مع الكلبة الأم ، وزوج من كلاب الرعى الذين كانوا يراقبون كل تحركاتى • فجلست ساكنا ، لكنى لم استطع اخفاء عدم استلطافى للحيوانات ، وفى الحال وثبت على ركبتى أكبرها ، فالقيت بها بعيدا ووضعت المنضدة بيننا • فأثار ذلك الثلاثة كلهم • وظهر آخرون وانضموا للفريق • وأصبحت محاصرا من جميع الجهات ، وما كان على الا أن أصرخ فى طلب النجدة •

كان السيد هيثكليف ورجاله بطيئين فى الاجابة• ولحسن الحظ اندفعت لانقاذى سيدة ضخمة قوية من المطبخ بذراعين عاريتين وخدين حمراوين من أثر الطهى ، وفضت الهجوم بمقلاة كبيرة • ودخل هيثكليف بعدها بقليل •

فسأل :

ـ ما هو الموضوع بحق الشيطان ؟

فأعطيته رأيى فى كلابه •

فعلق وهو يضع بزجاجة أمامى ، ويعيد المنضدة الى موضعها قائلا :

ـ انهم لا يتـــدخلون فيمن لا يلمس شـيئا • فالكلاب يجب أن تكون منتبهة • خذ كأسا من النبيذ !

ـ كلا ، شكرا •

ـ هل عضوك ؟ لا أظن ••

ـ اذا كان حـــدث ذلك ، لكنت تركت أثرا على العاض •

فضحك هيثكليف وقال :

ـ تعال ، تعال ، لقد عكروا صفوك يا ســيد لوكوود • هاك ، خذ قليلا من النبيـــذ • فالضـيوف نادرون فى هذا البيت ، وأعترف بأننى وكلابى لا نكاد نعرف كيف نستقبلهم • فى صحتك يا سيدى !

فانحنيت ، وبدأت أرى أنه من الحمق أن أتضايق من كلاب سيئة التصرف ، شاعرا أيضا بعدم الرغبـــة فى اعطاء مضيفى متعة أكبر بفقدان أعصابى •

ومن المحتمل أنه أدرك حماقة الاساءة لمستأجر جيد مثلى . وبدأ يتحدث بأدب أكثر ، وفى موضوع يعتقد أنه يهمنى . ووجدته ذكيا جدا وقبل مغادرتى كنت على استعداد أن أعرض عليه أن أقوم بزيارة أخرى غدا . ولم يبد الرغبة فى الاستمرار فى رفقتى ، ولكنى سوف أذهب اليه ثانية رغم ذلك ..

الفصل الثـانى

الترحيب لايزال أقل

كان الجو بعـــد ظهر الأمس غائما باردا ، لذلك قررت أن أقضيه بجوار مدفأة غرفة الجلوس • ولكن بعد انتهائى من العشاء وجدت الخادم لازال يحاول اشعالها• فأخذت قبعتى ، وبعد مسيرة أربعة أميال وصـــلت الى بوابة حديقة هيثكليف تماما فى الوقت الذى هربت فيه من سقوط بوادر وابل الثـلج الذى يبـــدو كالريش الخفيف •

كانت الأرض على قمة التل هذه باردة شـــديدة التجمد ، فجعلنى الهواء أنتفض مرتعدا ، وطرقت الباب الأمامى دون طائل ، وبدأت الكلاب فى ضجتها •

وطرقت مرة ثانية ، فظهرت رأس جوزيف غير الودود من نافذة مستديرة للمخزن · **وصاح قائلا :**

ـ ماذا تريد ؟ السيد موجود تحت بالمزرعة ·

فصحت قائلا :

ـ ألا يوجد أحد ليفتح الباب ؟

ـ توجد السيدة فقط ، وهى لن تفتح اذا ظللت تصيح حتى آخر الليل ·

ـ لماذا ؟ ألا تستطيع أن تخبرها من أنا ؟

ـ ليس هذا شأنى !

واختفت رأسه ·

بدأ الثلج يتساقط بكثافة ، وكنت على وشـــك أن أطرق الباب للمرة الثالثة ، عنـدما قدم فتى بدون معطف ويحمل مجرافا من الساحة الخلفية · فنادى على أن أتبعه · وبعد سيرنا عبر محل الغسيل وســـاحة تحتوى على مستودع للفحم ، ومضخة ، وبرج حمـام ، وصلنا فى النهاية الى الغرفة الضخمة الدافئـــة المبهجة التى استقبلونى فيها من قبل ·

كانت نارا هائلة تشتعل فى المدفأة ، وبالقرب من المائدة المعدة لوجبة عشاء متنوعة ، فرأيت « السيدة » فانحنيت وانتظرت ،معتقدا أنها ستطلب منى الجلوس· ولكنها نظرت الى متكئة على مسند كرسيها وظلت صامتة بلا حراك · **فعلقت قائلا :**

ـ انه طقس قاس ، لقد جاهدت يا مسز هيثكليف لأجعل خادمك يسمعنى ·

ولم تنبس ببنت شفة ولكنها احتفظت بعينيها على بطريقة باردة وسمجة جدا · **وقال الفتى بخشونة :**

ـ اجلس ، انه سيأتى حالا ·

فأطعته · ثم جاء أحد الكلاب بطريقة أكثر ودا عن المرة الأولى · **فاسترسلت قائلا :**

ـ حيوان جميل ، هل تنوين الاحتفاظ بالصغار يا مسز هيثكليف ؟

فقالت المضيفة بوقاحة أكثر من هيثكليف نفسه :

ـ انها ·· لا تخصنى !

فكررت ملاحظتى عن هياج الطقس ، فقالت السيدة وهى تنهض لتتناول علبتى شاى ملونتين من الرف الذى يعلو المدفأة :

ـ كان يجب عليك ألا تخرج !

كان مكانها يحجبها عن الضوء ، أما الآن فيمكننى رؤية كل وجهها وقوامها بوضوح · كانت تبدو أكبر قليلا من فتاة ، ذات قوام على أحسن ما يكون ، وأرق وجه صغير كان لدى المتعة فى رؤيته على الاطلاق ·

كانت علبتا الشاى بعيدتين عن متناول يديها تقريبا ، فقمت بالتحرك لمساعدتها ، فالتفتت نحوى وقالت بحدة :

ـ لا أريد مساعدتك !

فأسرعت طالبا عفوها ، وسألت وهى تقف ممسكة بملعقة مملوءة بالشاى فوق الابريق :

ـ هل دعيت على الشاى ؟

فقلت مبتسما :

ـ كلا ، انك الشخص المناسب لدعوتى ·

فالقت بالشاى مكانه وبالملعقة وبكل شيء ثم عادت الى كرسيها • وتدلت شفتها السفلى كطفل على وشـك البكاء •

ارتدى الفتى ، فى هذه الأثناء ، سترة كالجاكيت ، ووقف أمام المدفأة • وكان ينظر الى بشراسة ، وبدأت أشك فى أن يكون خادما • فملابسه خشـــنة وكذلك حديثه ، وشعره غير مقصوص ويداه داكنتين كيدى فلاح أجير ، الا أن سلوكه المتحرر يجعله يبدو متغطرسا • كما أنه لم يبد أى علامة على خدمة سيدة المنزل •

وبعد خمس دقائق أخرى وصل هيثـــكليف •
فقال وهو ينفض الثلج الأبيض الناعم من على ملابسه :

ـ اعجب لخروجك فى هـــذه العاصـفة الثلجية الكثيفة • ألا تدرى أنك من الممكن أن تضل الطريق ؟ حتى الناس الذين يألفون هذه البقاع كثيرا ما يضـلون طريقهم فى ليلة كهذه !

ـ ربما أمكننى الحصول على دليل من بين خدمك ؟ هل يمكنك الاستغناء عن أحدهم ليرشدنى الى الطريق ؟

ـ كلا ، لا أقدر ٠

فسال الفتى ناظرا للسيدة :

ـ هل ستقومين بعمل الشاى ؟

فسالت ملتفتة الى هيثكليف :

ـ هل سيتناول الشاى ؟

فأجابها بشراسة أثارت اندهاشى :

ـ جهزيه ، ممكن ؟

وعندما انتهى تجهيزه ، دعانى قائلا :

ـ والآن يا سيدى ، تقدم بكرسيك !

والتففنا جميعنا حول المائدة وبدأت الوجبة بدون مزيد من الحديث ٠

الفصل الثالث

لا مكان للزوار

بدا لى من المستحيل أن يجلسوا كل يوم فى عداء هكذا صامتين ، ففكرت اذا كنت قد تسببت فى تعكير الجو فمن واجبى أن أصفيه • **وأسرعت قائلا :**

ـ كثيرون لا يتخيلون المعيشة فى سعادة بعيدا هكذا عن المجتمع ، ولكنك يا سيد هيثكليف مع زوجتك وأسرتك ••

ـ ان زوجتى ليست على قيد الحياة يا سيدى !

فأدركت أننى اقترفت خطأ ، ونظرت الى الفتى •

والقى هيثكليف بنظرة حقد غريبة تجاه مسز هيثكليف وهو يتكلم :

ـ مسز هيثكليف هى زوجة ابنى !

ـ وهذا الشاب ..

ـ انه ليس بابنى . ابنى مات .

فاحمر وجه الشاب وقال فى خشونة :

ـ اسمى هيرتون ايرنشو ، وأنصحك أن تحترمه !

وثبت عينيه على بطريقة تهديدية . وبدأت أشعر بأننى متطفل على هذا المكان وسط هذه الأسرة الغريبة ، وصممت على أن أكون حذرا بالمجازفة بالحضـــور تحت سقفهم مرة ثالثة .

وعنـــدما انتهى موضـــوع الأكل ، اقتربت من النافذة . كان الليل قادما بحلكته والحركة الوحشية الملتوية للريح والثلوج تحجب الســـماء والتلال عن الرؤية . فقلت :

ـ لا أعتقد أنني أستطيع الوصول الى البيت حاليا بدون دليل !

وقال هيثكليف ناهضا :

ـ هيرتون ، أدخل الأغنام الباقيـــة فى الحظيرة والا سيردمها الثـــلج اذا تركنـاها فى الخارج طـوال الليل !

فاستانفت الحديث قائلا :

ـ ماذا يجب على أن أفعل ؟

ولمْ أحصل على جواب ، وعندما نظرت من حولى رأيت جوزيف فقط وهو يجلب طعام الكلاب ومســـز هيثكليف تميل فوق المدفأة · **فقلت بشكل جاد :**

ـ مسز هيكثليف ، أرجو أن تعذريني لازعاجك · دليني اذا سمحت على بعض العلامات المميزة التى عن طريقها أعرف طريقى للبيت ·

فقالت وهى تجلس على كرسى مع كتاب وشمعة :

ـ اسلك الطريق الذى أتيت منه ، لا أستطيع أن أدلك على الطريق فلن يسمحوا لى بالسير بعد سور الحديقة ٠

ـ ألا يوجد عمال بالمزرعة ٠٠ ؟!

ـ كلا ، لا يوجد الا هيثكليف وايرنشــو وزيللا وجوزيف وأنا ٠

فصاح صوت هيثكليف من المطبخ :

ـ آمل أن يكون هذا درسا لك بألا تقوم بمزيد من الرحلات الحمقاء على هذه التـــلال ٠ أما بخصوص البقاء هنـــا فأنا لا أحتفظ بغرف للزوار ، فيجب أن تقتسم السرير مع هيرتون أو جوزيف ٠

ـ أستطيع النوم على كرسى فى هذه الحجرة ٠

ـ كلا ! فالغريب غريب سواء كان غنيا أم فقيرا ٠ فلا يلائمنى أن يترك أحد هائما فى هذا المكان بدون حراسة ٠

وبهذه الاهانة نفد صبرى ، فاندفعت خارجا الى

الساحة التى كانت مظلمة لدرجة لم أستطع رؤية طريقى الى الخارج ·

وكان جوزيف يحلب الأبقار على ضوء مصباح ، فأمسكت به قائلا بأننى سأعيده فى اليوم التالى واندفعت الى أقرب بوابة **فصرخ الرجل العجوز :**

ـ سيدى ، سيدى ، انه يسرق المصباح · الحقوه يا كلاب ، الحقوه !

قفز كلبان كثيفا الشعر على رقبتى وطرحانى أرضا فانطفأ نور المصباح ، بينما ازداد غضبى وامتهانى بسبب ضحكات هيثكليف وهيرتون الوقحة ، وظللت ملقيا على الأرض رغما عنى هناك ، حتى صرخوا على الكلاب بالابتعاد ·

تسبب عنف غضبى فى نزيف من أنفى · واستمر هيثكليف فى الضحك ، واستمررت فى التوبيخ · وجاءت أخيرا زيللا الخادمة الضخمة لترى ما يحدث ·

ـ هل سنقتل الناس على عتبة بابنا ! انظروا الى

الشاب المسكين ! انه يتنفس بصعوبة ! أدخل وسأعالج ذلك ٠

ومع هذه الكلمات ألقت على رقبتى فجأة ببعض الماء المثلج ، وسحبتنى الى المطبخ ٠

وشعرت بالاعياء والاغماء ٠ وأبلغ هيثكليف زيللا أن تعطينى كوبا من شىء قوى لأشربه ، ويبــدو أننى تحسنت قليلا بعده ٠ ثم تركتها ، بعد ذلك ، تقودنى الى الفراش !

الفصل الرابع

ليلة مزعجة

نصحتنى زيللا ، ونحن نصعد السلم ، بألا أقوم باية ضجة ، حيث أن السيد لديه فكرة غريبة عن الغرفة التى تأخذنى اليها ، ولا يسمح لأحد مطلقا أن ينام فيها.

فأحكمت اغلاق بابى ونظرت حولى ٠ وكان كل الأثاث عبارة عن كرسى وصـــــندوق طويل للملابس ، وخزانة خشبية كبيرة لها فتحات مربعـــة فى أعلاها تشبه نوافذ العربة ٠ ونظرت فى داخل قطعة الأثاث هذه فوجدتها عبارة عن سرير غريب قديم مكونا حيزا خاصا به ملاصقا للنافذة ، ويستخدم الطرف العريض منه كمنضدة ٠

وكان على الرف الذى وضعت عليه شمعتى بعض الكتب القديمة مكومة فى أحد الأركان المغطاة بكتابات مخدوشة على الطلاء · وكانت هذه الكتابة عبارة عن اسم مكرر مرات عديدة وهو « كاترين ايرنشو » ويتبـدل أحيانا الى « كاترين هيثكليف » ، ثم مرة أخرى الى « كاترين لنتون » ·

استندت برأسى على النـافذة وواصـلت قراءة الأسماء حتى غفوت ، ولم أسترح سوى خمس دقائق حتى اكتشفت أن شمعتى قد وقعت على أحد الـكتب وأخذت أشم رائحة احتراق ، فاعتـدلت وتفحصـت الكتاب · كان اسم « كاترين ايرنشو » على الصـفحة الأولى ، وتحته تاريخ يرجع الى حوالى ربع قرن مضى · فأغلقته وأخذت بكتاب آخر ، وآخر حتى تفحصـتهم جميعهم ·

لقد استخدمت الكتب استخداما حسنا ولكن فى غير الغرض المعتاد ، فكل فراغ كان ممـلوءا بكتابات صبيانية ، بعض منها على هيئة مذكرات يومية لما يحدث·

وتعجبت أن أجد فى أعلى احدى الصفحات الاضافية رسما ممتازا لجوزيف ، فشعرت باهتمام فورى نحو كاترين المجهولة . وبدأت فى الحال قراءة الكلمات المطموسة :

يوم أحد مزعج .. آه لو كان أبى حيا .. ان هندلى كريه . ان معاملته لهيثكليف مخجلة .

ان المطر ينهمر طوال النهار .. لم نستطع الذهاب الى الكنيسة . وبينما يجلس هندلى وزوجته فى الطابق السفلى بجانب المدفأة المريحة ، كنا مامورين أن ناخـــذ كتب صلاتنا ونصعد الى أعلى المنزل لنستمع الى جوزيف مصليا وواعظا . بقينا هناك ثلاث ساعات ، ومع ذلك قال أخى أننا نزلنا بسرعة وقال :

– تذكروا أن لكم سيدا هنا ، وسأقتل اول من يزعج مزاجى . أوه ، يا ولد ؟ هل هـــذا أنت ؟ .. فرانسيس شديه من شعره أثناء مرورك .

ونفذت فرانسيس ذلك ، ثم ذهبت وجلست مع زوجها . وكانا كطفلين يتحدثان كلاما فارغا . واختبأنا في أحد الأركان ولكن جوزيف طردنا في الحال وقال باننا

أشرار لأننا نلعب فى يوم الأحد ·· وجدت قارورة حبر فكتبت فى هذا الكتاب لمدة عشرين دقيقة ، ولكن رفيقى نافد الصبر ويقترح أن نتدثر جيدا ونذهب لنركض فى البقاع · ولن نبرد ولا نبتل تحت المطر أكثر مما نحن فيه هنا ·

أعتقد أنهم فعلوا ذلك ، حيث أن الجملة التاليـة تناولت موضوعا آخر هو : « ·· لم أكن أعتقد أن هندلى يتسبب فى بكائى هكذا ! فرأسى تؤلمنى ، حتى اننى لا أستطيع أن أضعها طويلا على الوســـادة ! مسـكين هيثكليف ! يدعوه هندلى الغجرى ، ويمنعه من الجلوس معنا ، وأمره بألا يأكل معنا بعـد ذلك · ويقول أخى بأننى لا يجب أن ألعب مع هيثكليف وهدد بطرده من المنزل اذا عصى أوامره · وأخذ يلوم والدنا لمعاملتـــه الرحيمة لهيثكليف ، وأخذ يقسم بأن يضعه فى مكانه المناسب ··· » ·

بدأت رأسى تنكفىء على الصفحة الباهتة وغصـت فى السرير على الفور ونمت ·

ولا أدرى لماذا قضيت ليلة مزعجة ؟ أوه ، هل من أثر الشاى السيء وتعكر مزاجى ؟!

وأخذت أرى حلما مزعجا وراء حلم مزعج آخر ٠٠ كان جوزيف يدلنى على البيت ولكنه قادنى بدلا من ذلك للكنيسة التى مررت عليها فى طريقى الى المرتفعات ٠٠ وكان حديث الواعظ منقسما الى أربعمائة وتسعين جزءا ٠ وأصبحت مرهقا وقلقا : بدأت رأسى تتمايل ٠ وفى صوت كالرعد نادى على جميع المستمعين له بأن يعاقبونى بسبب فجورى ٠ فاندفع نحوى كل المتعبدين بعصيهم المرفوعة ، وأنا مجرد من أى سلاح ، وبدأت أتصارع مع أقرب مهاجم لى ، جوزيف ٠ وامتلأت الكنيسة بصوت الضربات ٠٠٠

وأخذ صوت الضربات يرتفع حتى استيقظت ٠٠ !

ما الذى سبب الضجة ؟ مجرد فرع شجرة لمس نافذتى ٠

فتقلبت فى السرير ، ثم نمت ثانية ٠ وتذكرت فى هذه المرة أين كنت راقدا ، وسمعت صوت الريح

ونقرات فرع الشجرة على النافذة ٠٠ وأزعجنى جدا هذا الصوت لدرجة أننى صممت على أن أسكته ٠ فنهضت وحاولت فتح النافذة ولكن بدون جدوى ٠

وزمجرت قائلا وأنا أكسر الزجاج بيدى وأمدها خارجا لأمسك بالفرع المزعج ٠

يجب أن أوقفه ، رغم ذلك !

وعوضا عن ذلك قبضت أصابعى على أصابع يد صغيرة باردة كالثلج !

انتابنى رعب مهول : وحاولت أن أسترجع يدى ولكن اليد أمسكت بها ، وسمعت صوتا حزينا :

ـ دعنى أدخل ! دعنى أدخل !

فسألت وأنا أصارع فى تحرير نفسى :

ـ من أنت ؟!

فأجاب الصوت منتفضا :

ـ « كاترين لنتون » ٠٠ لقد عدت للبيت ٠ لقد ضيعت طريقى فى البقيع ٠ (لماذا فكرت فى «لنتون» ؟

•ولقد قرأت « ايرنشـــو » عشرين مرة بالمقـــارنة مع « لنتون ») • وشاهدت أثناء ذلك فى شحوب ، وجه طفلة تنظر عبر النافذة •

وجاءت الصرخة مرة أخرى ، بينما اليد مستمرة فى الامساك بيدى التى خبلتنى فزعا :

ـ دعنى أدخل !

فقلت اخيرا :

ـ كيف لى ؟ اتركينى اذا أردت أن أدخلك !

تراخت الأصابع ، فسحبت يدى بسرعة من خلال الفتحة المكسورة ، وكومت الكتب قبالها وسددت أذنى حتى لا أسمع أى صوت ••

ويبدو أننى ظللت هكذا مايزيد عن ربع ساعة ، ومع ذلك فعند لحظة انصـــاتى ثانية تكـررت الصرخة الحزينة • وجعلنى الخوف قاسيا • **فصرخت :**

ـ ابعدى ! لن أدعك تدخلين مطلقـــا ، **حتى لو** توسلت لمدة عشرين سنة !

فقال الصوت :

ـ انها عشرون سنة . عشرون سنة ! اننى أهيم من عشرين سنة !! .

وبدأ النبش بالأظافر من الخارج وتحركت كومة الكتب وكأنها تندفع الى الأمام . فحـــاولت أن أقفز ناهضا ، ولكنى لم أستطع الحركة ، وهـــكذا صرخت بصوت عال فى فزع !

الفصل الخامس

سلوك مضيفى الغريب

اقتربت خطوات متلهفة من بابى • وفتحه شخص ما بيد عنيفة ثم ظهر نور فاستيقظت وجلست مرتعدا •

وقال صوت فى شبه همس مبديا عدم توقعـــه للاجابة :

ـ هل يوجد أحد هنا ؟! •

فحركت أبواب الخزانة ، ولن أنس أثر ما أنتجه ذلك • كان هيثكليف واقفا بالقرب من المدخل ، مرتديا قميصه وبنطلونه ، وممسكا بشمعة فى يده ووجهـه أبيض فى لون الحائط الذى خلفـــه ، وأثرت حركتى

الأولى فيه كصدمة كهربائية · فسقطت الشمعة من يده .
وصحت قائلا :

ـ اننى ضيفك فقط يا سـيدى ، لقد صرخت لسوء الحظ فى نومى بسبب حلم مخيف !

فزمجر هيثكليف لاعنا ، ووضـع الشمعة على الكرسى لأنه لم يستطع الامسـاك بها فى ثبات ·
وسألنى :

ـ ومن أتى بك الى هذه الغرفة ؟!

فأجبت :

ـ زيللا خادمتك ، أعتقد أنها أرادت الحصول على دليل بأن المكان مسكون · حسن ، انه لكذلك ! ولك الحق فى اغلاقه ·

فسأل هيثكليف :

ـ ماذا تعنى ؟ لا يوجد عذر للضجة الرهيبة التى أحدثتهـا ، الا اذا كان هناك شـخص يذبحك من رقبتك ·· !

فاجبت :

ـ اذا دخل شبحها الصغير من النافذة لكانت قد أجهزت على بالتأكيد ! حيث أن كاترين لنتون أو ايرنشو أو أى اسم تدعى به أخبرتنى بأنها تسير فى الأرض منذ عشرين سنة !

وما كدت أنتهى من هذه الكلمات الا وتذكرت ارتباط هيثكليف مع كاترين من الكتابة الموجودة فى الكتاب ٠

وارعد هيثكليف قائلا :

ـ ماذا تعنى بكلامك بهذه الطريقـــة لى ؟ كيف تجـــرؤ على ذلك وأنت تحت سقفى ؟! وخبط جبهتـه بضراوة ٠٠ وبدأت ألبس ، وجلس هيثـــكليف على السرير ٠ واعتقد ، بسبب تنفســه المتقطع ، انه كان يصارع شعورا جبارا ٠ **وقال أخيرا :**

ـ سيد لوكوود ، يمكنك الذهاب الى حجرتى ٠ فصراخك الصبيانى قد أنهى فرص نومى لهذه الليلة ٠

فاجبت :

ــ وأنا أيضا ٠ سأسير فى الســـاحة حتى بروغ ضوء النهار ، ثم أرحل !

وتركت الغرفة ، ثم لكونى لم أعرف الطريق الى تحت ، استدرت عائدا لأسأل ، فشاهدت دون قصـد سلوك مضيفى الغريب ٠

لقد ذهب الى السرير وفتح النافذة منفجرا ، وهو يفعل ذلك ، فى نوبات من البكاء الذى لا يمكن التحكم فيه ٠ وصرخ :

ــ تعالى ! تعالى ! كاتى افعليها وتعالى ! ٠٠ أوه افعليها مرة أخرى ! أوه ٠٠ يا أغلى ما فى قلبى ! هل تسمعين هذه المرة ، كاترين ، أخيرا !!

لم يظهر شبحها على الاطلاق ولكن الجليد والريح كانا يهبان للداخل بوحشية ٠

وكانت هناك معاناة فى حديثه المسعور لدرجة أنى بدأت أشفق عليه ٠٠ فنزلت متحســـسا طريقى الى

المطبخ بهدوء حيث وجدت بقايا للنار مازالت دافئة ، فتمددت على طاولة حتى الصباح وغادرت مبكرا بقـدر الامكان ·

كان الهواء صافيا وباردا كالثلج · وقبل أن أصل نهاية الحديقة جاء مضيفي ورائي وعرض أن يذهب معي عبر المستنقعات · وحسنا ما قد فعل حيث كان جانب التل كله عبارة عن بحر عظيم من الثلج الأبيض ، ولا يمكن رؤية الطريق ·

وتبادلنا قليلا من المحادثة ، وافترقنا عند مدخل باحة تراش كروس · ووصلت منزل المزرعة بعـد ما ضللت طريقي بين الأشجار ، وغصت حتى رقبتي في الجليد ، فارتاحت مســز دين مدبرة المنزل لرؤيتي ، لأنها اعتقدت بأنني لقيت حتفي في المستنقعات !

الفصل السادس

من هؤلاء الناس ؟

أصبحت عندئذ شـبه متجمد ٠٠ وجررت نفسى صاعدا السلم ، وارتديت ملابس جافة ، وجلست فى حجـرة الجلوس ضعيفا لدرجـة لم أستمتع بالمدفأة المبهجة ولا بالقهوة الساخنـة التى أعدتهـا الخادمة لانعاشى ٠

لقد اخترت هذا المكان ، على ما أذكر ، لانعزاله ٠٠ ولكننا نحن البشر لا نعرف عن عقولنا الا القليل ! هل حقا أرغب فى الحياة هنا ؟!

وعند المساء كنت قد تعبت من مصاحبة نفسى ٠٠ فطلبت من مسز دين عندما أحضرت العشاء أن تجلس أثناء تناولى له ، **وسألتها :**

ـ لقد عشت هنـا لفترة من الوقت ٠٠ أليس كذلك ؟

ـ ثمانية عشر عاما يا سيدى ٠ لقد جئت عنـد زواج السيدة لأقوم على خدمتها وبعد وفاتها ، احتفظ السيد بى كمديرة لمنزله ٠

وفكرت :

ـ سأدير الحديث عن عائلة صاحب المزرعة وفتاة النافذة الجميلة هذه ـ أحب أن أعرف تاريخها ٠

وبهذه النية سألت لماذا أجر هيثكليف منزل تراش كروس وفضل أن يعيش فى مكان أقل عظمة الى حـد كبير ٠

واستفسرت :

ـ أليس غنيا بما يكفى للحفاظ على المزرعة فى حالة لائقة ؟ ٠

فأجابت :

ـ غنى يا سيدى ! أجل انه غنى لدرجة تمكنه من

أن يعيش فى منزل أفخم من هذا . ولكنه حريص جدا على ماله .. !

ـ لديه ابن على ما يبدو ؟

ـ كان لديه ابن ومات !

ـ والسيدة الشابة مسز هيثكليف أرملة ابنه من أين جاءت ، فى بادىء الأمر ؟

ـ لماذا يا سيدى ، انها ابنة المرحـــوم سيدى السابق ، وكان اسمها قبل الزواج كاترين لنتون . كنت مربيتها ، المسكينة !

فقلت متعجبا :

ـ ماذا !. كاترين لنتون ؟!

ولكن لحظة تفكير جعلتنى أدرك أنها ليست كاترين الشبح .

ـ ومن هو ايرنشـــو ، هيرتون ايرنشو ، الذى يعيش مع السيد هيثكليف ؟ .. هل هو قريب له ؟

ـ كلا .. انه ابن أخ المرحومة مسز لنتون ، وابن

خال السيدة الصغيرة · هيرتون هو آخر سليل لعائلة ايرنشو ، عائلة قديمة جدا مالكة لمرتفعات وذرينج ·· وكاترين هى السليلة الوحيدة الباقية من عائلة لنتون ، الذى كان منزل عائلتها هو مزرعة تراش كروس · هل ذهبت الى المرتفعات يا سيدى ؟ أود أن أسمع كيف حالها ؟!

ـ مسز هيثكليف ؟ انها تبدو فى حالة طيبة ، وجميلة جدا ، ولكنها ليست سعيدة على ما أعتقد ··

ـ أوه ، حسن ، اننى لست مندهشة · وكيف وجدت السيد ؟

ـ انه شخص خشن يا مسز دين · هل تعرفين أى شىء عن حياته ؟

ـ كل شىء يا سيدى ، فيما عدا مسقط رأسه ، ومن هما والداه ، ولا أعرف كيف حصل على ماله فى البداية ·· ولقد خسر هيرتون حقوقه ! فالولد التعيس لا يعرف كيف سلبت أملاكه !

ـ حسن ، يا مسز دين ، لن أستطيع أن أرتاح اذا

ذهبت الى الفراش · فهل يمكنك البقاء واخبارى ببعض ما تعلمينه عن جيرانى ؟

– أوه ، بالطبع يا سيدى ! سأذهب لأحضر قليلا من شغل الخياطة ثم أجلس كما تحب !

وخرجت مسرعة ، واقتـــربت من المـــــدفأة · فاحسست برأسى ساخنة ، وباقى جسمى باردا · لقد أثارتنى أحـــداث اليومين الأخيرين ، وبدأت أخشى أن يكون الأثر على صحتى خطيرا ·

وثبت أن مخـاوفى كانت حقيقيـة · وقضيت الأسابيع التالية فى الفراش ، وأثنـــاء وعكتى كانت مسز دين تأتى لتجلس وتشاركنى الصحبة ·

وأثناء ذلك ، أخبرتنى قليلا قليــلا بالقصـــة التالية ··

الجزء الأول

كاترين الأولى
او
بذور الحقد تزرع

(١٧٧١ - ١٧٨٤)
ترويها السيدة ايلين (نيللى) دين مدبرة منزل مزرعة تراش كروس
والخادمة السابقة بمرتفعات وذرينج

الفصل السابع

غريب غير مرغوب فيه

بنت عائلة ايرنشو مرتفعات وذرينج منذ أكثر من ثلاثمائة سنة مضت ، وظل حتى عهد قريب منزلا للعائلة .. وكنت ، قبل أن أحضر لأعيش فى المزرعة ، دائمـا فى المرتفعات ، لأن أمى كانت ، وأنا طفلة صـــغيرة ، مربية لهندلى ايرنشـــو الذى كان والد هيرتون ... واعتدت ، كطفلة أن ألعب مع الطفلين ، هندلى وأختـه

كاترين ٠٠ وأقوم باعمال صغيرة ، أيضـــا ، كتجميع القش ، وكنت دائما مستعدة بالمزرعة للقيام باى عمل يطلبه منى أى أحد ٠

وفى صباح أحد أيام الصيف الجميلة نزل السيد ايرنشو الكبير مرتديا ملابس السفر ، وبعد ما أخبر جوزيف ما عليه أن يقوم به أثناء النهـــار ، التفت الى ابنه وابنته وسألهما عما يحبان أن يحضره لهما من ميناء ليفربول ، قائلا يجب أن يكون ما يحضره شيئا صغيرا حيث أن المسافة حوالى ستين ميلا ٠ فطلب هندلى آلة كمان ، واختارت كاترين سوطا ، فرغم كونها لا تزيد عن ست سنوات من العمر الا أنها كانت تستطيع أن تمتطى أى جواد بالاسطبل ٠ وقبل ابنه وابنته مودعا وانطلق ٠٠

وبدت الأيام الثلاثة التى غابها فترة طويلة علينا جميعا ٠ وتوقعت السيدة ايرنشو حضوره على موعد العشاء فى الليلة الثالثة ، وأخذت تؤجل الأكل ساعة وراء ساعة ولكن لم تبد أى علامة على مجيئه ٠ وحـل

الظلام وأرادت أن ترسل الطفلين الى فراشهما ، ولكنهما توسلا أن يظلا مستيقظين حتى يحضر ٠

وفى حوالى الساعة الحادية عشرة انفتح البـــاب بهدوء ، ودخل السيد ملقيا بنفسه على الكرسى ضاحكا متأوها ، ثم فتح معطفه الكبير الذى كان ممســـكا به ملفوفا على ذراعيه ٠

ــ انظرى هنا ، يا زوجتى ! عليك أن تأخذى هذا كهدية من الله ، رغم أنه فى سمرته كأنه قادم من عند الشيطان !

تزاحمنا من حوله وشاهدت من فوق رأس كاترين طفلا قذرا ، أسود الشعر ممزق الملابس ، كبيرا بمــا يسمح له أن يمشى ويتكلم ٠ وفى الحقيقة كان يبدو أكبر من كاترين ٠ وعندما وضعوه على قدميه ، أخذ يحملق فى من حوله ويكرر بعض الأصوات التى لم يفهمهــا أحد ٠ لقد خفت ، وكانت السيدة اير نشو مســـتعدة أن تلقى به خارج الأبواب ٠

لقد رآه السيد يموت جوعا ، بلا مأوى وغير قادر

على النطق باى كلمة انجليزية فى أحد شوارع ليفربول · ولم يعرف أحد أهل هذا الطفل ، فقرر ألا يتركه طالما عثر عليه ، وحيث أن وقته كان محدودا ، وكذلك النقود التى معه ، ففكر أنه من الأفضل أن يأخذه معه ، الى البيت فى الحال · وطلبوا منى أن أحممه ، وأعطيه ملابس نظيفة ، وأدعه ينام مع الأطفال ·

واقتنع هندلى وكاتى بالنظر والاستماع حتى بدأ كلاهما البحث فى جيوب والدهما عن الهديتين اللتين وعدهما بهما · وكان هندلى صبيا فى الرابعة عشر من عمره ، ولكنه عندما سحب ما كانت آلة كمان وتكسرت فى المعطف الى قطع صغيرة بكى عاليا ·· وعندما علمت كاتى بأن أباها قد فقد سوطها وهو يرعى الغريب أبدت انفعالها بأن تبصق وتكشر فى هذا الشىء الصغير · وتلقت ضربة من أبيها ليعلمها السلوك المهذب · ورفضا كلية أن ينام الطفل معهما فى فراشهما أو حتى فى حجرتهما ، ولذلك وضعته خارجا على السلم ، آملة أن يذهب لحاله عند قدوم الصباح · ولكنه تسلل الى باب

غرفة السيد ايرنشو وعثر عليه هناك • فطردني خارج المنزل كعقاب على قسوتي •

وعند عودتي بعد أيام قليلة وجدتهم قد أطلقوا على الطفل اسم هيثكليف • وكان هـــذا اسم ابن لعائلة ايرنشو مات في طفولته • وأصبح منـــذ ذلك الحين بالنسبة له اسما ولقبا •

وأصبح هو والآنسة كاتي على وفاق تام ، بينمـا كرهه هندلي • ولم تقل السيدة أية كلمة عندما تراه يسيء معاملته •••

كان يبدو طفلا صبورا غير مبتسم ، ربما تعـود على عدم الشفقة • فكان يقاسي من ضربات هندلي دون شكوى • وعندما اكتشف السيد ايرنشو أن ابنـــه يضرب الطفل اليتيم المسكين ، كما دعاه ، غضب وثار • وأصبح مغرما به بشكل غريب ، فأخذ يدلله أكثر من كاترين التي كانت متشبثة الرأى جدا وشقية لدرجـة أبعدتها عن أن تكون المفضلة •

وهكذا تسبب هيثكليف ، من البداية ، فى بث الشعور السىء فى المنزل ، وعند وفاة السيدة ايرنشو ، بعد عامين ، تعلم السيد الصغير أن يفكر فى أبيه على أنه قاس ، وغـــير رحيم ، وفى هيثكليف على أنه لص سرق حب أبيه منه ٠

وكنت أتعجب دائما ما الذى رآه سيدى ليعجب به فى هذا الولد الكريه الذى ، على قدر ما أتذكر ، لم يظهر أية علامة امتنان لمعاملته على هذا النحو الطيب ٠٠ كان بكل بساطة بلا شعور تجاه حاميه ، رغم أنه يعرف جيدا مكانته فى قلبه ٠

أذكر ذات مرة أن السيد ايرنشو اشترى زوجا من الجياد للأولاد ٠ فأخذ هيثكليف الأجمل ٠ ولكنه بعد فترة أصابه شىء فى قدمه ، **وعندما اكتشف ذلك قال لهندلى :**

ـ يجب أن تبادل جوادك بجوادى ، والا أخبرت والدك بالضربات الثـــلاث اللاتى أعطيتهم لى هـــذا الأسبوع !

فهدده هندلى بكرة حديدية كانت فى يده · **فقال هيثكليف :**

ـ القها ، وسأقول انك تتفاخر بطردى خارج البيت عند وفاته وسترى أنه سيطردك أنت فى الحال ·

فالقاها هندلى ، وضربه فى صدره وتسبب فى سقوطه · ونهض ثانية فى الحال شاحبا مقطوع النفس ، واذا لم أمنعه لكان ذهب فورا الى السيد وحصل على انتقام كامل ·

وقال الفتى هندلى :

ـ خذ حصانى يا غجرى يا حقير ، وأدعو الله أن تنكسر رقبتك آ

وذهب هيثكليف ليستولى على الحصان عندما انتهى هندلى من حديثه ، واندهشت عندما رأيت الطفل يلملم نفسه بهدوء وينهض من تحت قدم هندلى ، ويقوم بتبديل السرجين وكل شىء ، وحثثته على أن يضع اللوم للكدمات التى ظهرت فى وجهه على الحصان . فلم يعر ذلك اهتماما طالما قد حصل على ما يريد ·

الفصل الثامن

هندلى يصبح سيدا

ويمر الوقت ، وتبدأ صحة السيد ايرنشو تسوء٠

وفجأة يفقد قوته ويصبح سريع الغضب ٠ واستقر فى رأسه انه بسبب حبه لهيثكليف ، فكل واحد يكره الولد ويتمنى له الأذى ٠ وكان هذا ضررا على هيثكليف الصغير ، لأننا كنا لا نريد ازعاج السيد ، واستسلمنا له جميعنا ما عدا ابنه ، وكان ذلك تشجيعا لكبرياء الولد واستشراء لطبعه الأسود ٠ وكان أسلوب الاحتقار الذى يستخدمه هندلى يغضب والده : وكاد السيد ايرنشو أن يمسك بعصاه ليضربه ، وانتفض من الغضب لعجزه ٠

وأخيرا ، جاء راعي كنيستنا ، الذى كسب بعض المال من تعليمه لصغار عائلتي لنتون وايرنشو ، ونصح بارسال الفتى الى الكلية ووافق السيد ايرنشو ولـكن على مضض ..

وأملت أن نحصل على السلام آنئذ ، وتم ذلك فيما عدا من الآنسة كاتى ، وجـوزيف . فكان الخادم العجوز لديه كل ليلة سلسلة من الشكاوى ضد هيثكليف وكاتى . أما بخصوص كاتى ، فبالتأكيد كان لديهـا طرق لم أر مثلها مطلقا فى طفلة من قبل . فـكانت تفقدنا صبرنا خمسين مرة وأكثر كل يوم . فمن ساعة نزولها من الطابق العلوى حتى ساعة ذهابها للنوم ، ونحن لا نحصل على دقيقة راحة من شقاوتها . كانت روحها دائما مرحة ولسانها دائما يتحرك .. تغنى ، وتضحك وتزعج كل من لا يفعل مثلها . فكانت شيئا صغيرا شريرا متوحشا ، ولكن كان لديها أجمل عينين ، وأحلى ابتسامة ، وأرشق خطوة فى منطقتنا كلهـا . وأظن ، رغم كل شىء ، أنها لم تكن تقصد أى ضرر . واصبحت متيمة بهيثكليف ، وأعظم عقاب يمكننا أن

نخترعه لها هو أن نبعدها عنه ، رغم أنه كان يوبخها أكثر من أى واحد فينا ! •

وجاءت الساعة ، أخيرا ، التى أنهت عنا ايرنشو على الأرض • لقد مات بهدوء على كرسيه فى أحد ليالى شهر أكتوبر •

وجاء السيد هندلى للبيت من أجل الجنازة ، والشىء الذى جعل الجيران يتهامسون يمينا وشمالا هو زوجته التى جلبها معه • ولم يخبرنا مطلقـــا من هى ولا أين ولدت • ربما لأنها ليست ذات مال ولا اسم يزكيها ، والا ما كان احتفظ بزواجه سرا عن والده •

كانت نحيفة نوعا ما ، ولكنها صـــغيرة نضرة ، وكانت عيناها تبرقان كالماس ، ولـــكنى لاحظت أن صعودها السلم يجعل تنفسها سريعا نوعا ما ، وأنهـــا تسعل أحيانا بشكل سىء •

لقد تغير ايرنشو الصغير خلال السنوات الثلاث لغيابه • فكان يتكلم ويلبس بشكل مختلف • وأبدت

روجته سعادتها فى أن تتخذ كاتى كأخت لها ٠٠ فكانت تقبلها وتغمرها بالهدايا ٠ ومع ذلك ، لم تدم عاطفتها طويلا ، فكلمـات قليلة منهـا ذاكرة عدم استلطافها لهيثكليف كانت كافيـة لتحرك فى زوجها كراهيته السابقة للغلام ، فطرده من صحبتهم الى جانب الخدم ، وأوقف تعليمه مع راعى الكنيسة ، وجعله يعمل كأى غلام أجير آخر فى المزرعة ٠

تحمل هيثكليف معاملته بشكل حسن فى البداية ، لأن كاتى أخذت تعلمه كل ما تعلمته هى وكانت تعمل أو تلعب معه فى الحقول ، فالاثنان كانا ينمـــوان فى توحش ووقاحة تامة ٠ أما السيد الصغير ، فلا يعبـــأ كلية بسلوكهما ، طالما أنهما يبعدان عنه ٠

وكانت احدى تسلياتهم اللجوء الى البقـــاع فى الصباح ، ويظلان هناك طوال اليوم ٠٠ وكان العقاب الذى يلى ذلك مجرد شىء يضحكان عليه : وينســيان كل شىء فى الدقيقة التى يلتقيان فيها سويا ٠٠ !

الفصل التاسع

المغامرة التعسة

تصادف فى يوم من أيام الآحاد أن أبعدت كاترين وهيثكليف من غرفة الجلوس بسبب الضجة التى يحدثانها • وعندما ذهبت لأناديهما على العشاء ، لم أستطع العثور عليهما فى أى مكان • وفى النهاية طلب هندلى منا فى حنق أن نغلق الأبواب ، وأقسم بألا يسمح لهما بالدخول فى تلك الليلة •

ذهب الجميع الى النوم فيما عداى ، اذ لم يأتنى نوم لقلقى عليهما ، ففتحت نافذتى ، وأطللت برأسى متصنتة ، فسمعت ، بعد فترة خطوات خفيفة على الطريق ، ورأيت هيثكليف بمفرده • **فصرخت :**

ـ أين الآنسة كاترين ؟ عسى ألا يكون حدث لها اى مكروه ؟! ٠

فاجاب :

ـ انها فى مزرعة تراش كروس ٠ دعينى أخلع ملابسى المبتلة ، وسأخبرك بكل شىء ٠

فنبهته بأن يحرص على عدم ايقاظ السـيد ٠ فاسترسل قائلا وهو يخلع ملابسه :

ـ هربنا أنا وكاتى من المنزل لنأخذ ساعة أو ساعتين من الحرية ، ولما لمحنا أضواء المزرعة ، فكرنا أن ندخل ونرى كيف تقضى عائلة لنتـون أمسيات أيام الآحاد ٠ وركضنا من أعلى المرتفعات الى المزرعة بدون توقف ٠٠ لقد انهزمت كاترين تماما فى السباق ،لأنها كانت حافية القدمين ٠ عليك أن تبحثى عن حذائها فى المستنقع غدا ٠ وزحفنا عبر سياج مكسور ووقفنا على حوض زهور تحت النافذة ٠ وبتسلقنا الحافة السفلية استطعنا أن نرى ٠٠ آه ٠٠ انها جميلة جدا ! ٠٠ حجرة رائعة بكراسى مغطاة بالأحمر وموائد وأرائك ، وسجادة

حمراء ، وسقفا أبيض نقي محاطا في حوافه بالذهب ، ووابلا من قطرات الزجاج تتدلى في سلاسل فضـــية من المركز ، وتسطع بأضواء صغيرة متلألئة ... وكان ادجار وأخته وحدهما هناك .. خمنى ماذا كانا يفعلان ! .. ايزابيللا ..وأعتقد أن عمرها نحو أحد عشر عاما.. تصرخ في طرف من الحجرة .. ويبكي ادجار وهو واقف بجوار المدفأة ، ويجلس كلب صغير في وسط مائدة ، وكانا يجذبان الكلب حتى كادا أن يقسمانه نصفين . كانت هذه متعهما ! .. وضـــحكنا على هـذه الأشياء المدللة . هل تجدينني راغبا فيما تريده كاترين ؟ انني لا أبدل حالي هنا بحال ادجار لنتون في مزرعة تراش كروس ، ولا مقابل ألف حياة !

فقاطعته قائلة :

ـ تكلم بهـــدوء أكثر ، مازلت لم تخبرني كيف تركت كاترين ؟

فأجاب :

ـ قلت لك ضحكنا ، فسمعنا الأخوان لنتون ،

وبدآ يصرخان طالبان بابا وماما ٠٠ فقمنا بضوضاء مزعجة لنخفيهما أكثر ، ثم القينا بانفسنا من حافة النافذة بسبب قدوم أحد الخدم ٠ وأمسكت كاتى من يدها ، وأخذت أحثها على الاسراع عندما سقطت فى الحال ٠ وكانوا قد أطلقوا كلب الحراسة فأمسك بقدمها ٠٠ ولم تصرخ ٠٠ كلا ، وان فعلت لكانت موضع ازدراء ٠٠ وأمسكت بحجر ودفعت به بين فكى الحيوان٠ ثم خرج خادم ، وأبعد الكلب وحمل كاتى ٠ كانت فى حالة اعياء ، لا من الخوف ، أنا متأكد ، ولكن من الألم ٠

ونادى السيد لنتون من المدخل :

ـ « على من قبضت يا روبرت ؟ »

فاجاب :

ـ « بنت صغيرة يا سيدى ، ويوجد ولد يبدو أنه لص » ٠

ثم أضاف وهو يقبض على :

ـ « من فضلك جهز بندقيتك يا سيد لنتون » ٠

وجذبنى تحت الضوء ، ووضعت السيدة لنتون

نظارتها على أنفها ورفعت يديها فى فزع ، وتسلل الطفلان مقتربان ، **وصرخت ايزابيللا :**

ـ « احبسه يا أبى ، انه يشبه بالضبط ابن الغجرى الذى سرق عصفورى » • وفى هذه اللحظة استعادت كاتى وعيها من اغمائها ، وسمعت الحديث الأخير فضحكت • وتعرف عليها آنئذ ادجار • انهم يرونا فى الكنيسة ، تعرفين • **وهمس لأمه :**

ـ « انها الآنسة ايرنشو ! » •

ـ « الآنسة ايرنشو ؟ مستحيل ! الآنسة ايرنشو تركض فى البلد كالغجرية ! •• وقدمها تدمى ؟! » •

وقال السيد لنتون متعجبا :

ـ « باهمال أخيها ! فى أن يدعها تنشأ هكذا ! ومن أين انتقت رفيقها ؟ ولد شرير ، ولا يليق بمنزل محترم • هل استمعت لألفاظه ؟ »

فبدأت ألعن ثانية ، وهكذا أمروا الخادم أن يطردنى . كانت ستارة النافذة مازالت مسحوبة جزئيا ،

فوقفت أراقب ، لأنني اذا رأيت كاتي ترغب في العودة لكسرت الزجاج ، الا اذا تركوها تخرج ٠٠ ورأيتها وقد جلست في هدوء على الكنبة ٠ وأحضرت الخادمة حوضا من الماء الدافىء ، وغسلت قدميها ، وأعطاها السيد لنتون شرابا ساخنا ، ووضعت ايزابيللا طبقا مملوءا بالكعك على ركبتيها ٠ وبعد ذلك جففوا شعرها الجميل ، ومشطوه ، وأجلسوها بجوار المدفأة ، وتركتها في أقصى حالات المرح جالبة شرارة حياة لعيون عائلة لنتون الزرقاء الغبية ٠ لقد رأيتهم مملوءين باعجاب غبي ٠ انها أعلى منهم مقاما ، ومن أي أحد آخر على الأرض ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠

فقلت :

ـ سيكون ذلك مصدر ازعاج عندما يعرف ذلك السيد هندلي يا هيثكليف !

وتحققت كلماتي أكثر مما وددت ٠ غضب هندلي ، وزارنا السيد لنتون وتكلم مع السيد الصغير عن مسئولياته نحو أخته ٠ ونتيجة لذلك أبلغ هيثكليف بأنه سوف يطرده اذا تكلم مع كاترين مرة ثانية !

الفصل العاشر

عودة كاترين للبيت

بقيت كاتى فى مزرعة تراش كروس خمســـة اسابيع حتى الكريسماس .. شفى أثناءها قدمها وتحسن سلوكها • وتعلمت الاستمتاع بالملابس الجميلة والاعجاب بها ، ولذلك فبعد أن كانت كائنا صغيرا متوحشا غير متمدين ، تقفز بلا قبعة الى المنزل وتندفع صاعدة الينا ، أصبحت الآن فتاة صغيرة حسنة الملبس حريصة جدا على مظهرها •• وقفزت برشاقة من على فرش أســـود جميل • **وساعدها هندلى • وهو يتعجب قائلا :**

ـ لماذا ، يا كاتى ، انك جميلة جدا ! تبـــدين سيدة الآن !

وجاءت الكلاب تقفز مرحبة بها ، ولكنها لم تجرؤ ان تلمسهم خوفا من أن يتلفوا فستانها الرائع • وقبلتني بحذر ، اذ كان على أثر من الدقيق الذى كنت أعد به كعكة الكريسماس • ثم نظرت حولها باحثة عن هيثكليف •

كان من الصعب العثور عليه فى البداية •• فقد تم اهمال أمره منذ غياب كاتى عن البيت •• ولم يكن هناك أحد غيرى يستطيع أن يحثه على الاستحمام •• وكانت ملابسه متسخة بالوحل والتراب من كثرة الشغل ، وشعره الكثيف غير ممشط ووجهه ويداه فى حاجة الى الماء والصابون • وكان له عذره فى الاختباء •

فصرخ السيد هندلى مستمتعا باذلاله :

ـ هيثكليف ، يمكنك الظهور ، يمكنك أن تتقدم وترحب بالآنسة كاترين مثل بقية الخدم !!

طارت كاتى لتقبل صديقها سبع أو ثمان مرات على حده ، ثم توقفت ، وانسحبت للخلف وانفجرت فى الضحك متعجبة :

ـ لماذا تبدو هكذا أسود قبيح المنظر ؟! •• ولكن هذا لأنى اعتدت على ادجار ، وايزابيللا لنتون •

فقال هندل فى صوت متعال :

ـ صافحها يا هيثكليف !

ولكن الأنفة والخجل جعلتا الغلام لا يتحرك •• وقال اخيرا :

ـ لن أفعل • ولن أقف لتسخروا منى !

وكان سيفلت من حلقتنا ، ولكن الآنسة كاتى امسكت به ثانية ، وقالت :

ـ اننى لا أقصد أن أسخر منك • لقد كنت فقط تبدو غريبا جدا • فأنت متسخ جدا !

وبدت قلقة على فستانها خوفا من أن يكون قد بقعه • وقال متتبعا عينيها :

ـ لم يكن من الضرورى أن تلمسينى ، وسابقى متسخا كما أحب !

وبذلك اندفع خارجا من الحجرة متبوعا بضحكات سيدى وسيدتى • وتكدرت كاتى ولم تستطع ان تفهم حدة مزاجه •

كانت الليلة السابقة ليوم الميلاد « الكريسماس » وذهب جوزيف للصلاة • وجلست بمفردى فى المطبخ متذكرة سيدى الكبير ، وعطفه على • ومن هذه الأفكار انتقلت الى غرامه بهيثكليف ، وخوفه من أن الولد قد يعانى الاهمال بعد وفاته •

كانت كاترين فى حجرة الجلوس مع اخيها وزوجته تشاهد الهدايا التى اشتروها لها لتعطيها لعائلة لنتون ، ووجدت هيثكليف فى الاسطبل • فقلت له :

— أسرع يا هيثلكيف • دعنى اجملك تبدو انيقا قبل ما تخرج الآنسة كاتى ، وعندئذ يمكنكما الجلوس سويا بجوار المدفأة فى المطبخ وتتجاذبان الحديث حتى موعد النوم •

لكنه استمر فى شغله دون أن يلفت رأسه مطلقا •

وبقيت كاتى حتى وقت متـــأخر تجهز للصـــديقين الجديدين ، اللذين سيزورانها فى اليوم التالى • وجاءت الى المطبخ لتتكلم مع صديقها القديم ، ولكنه لم يـــكن هناك •

الفصل الحادى عشر

عيد الميلاد غير السعيد

استيقظ هيثكليف فى اليوم التالى مبكرا ، وحيث أن اليوم كان عطلة ، فقد أخذ مزاجه الحاد وذهب الى المستنقعات ، ولم يظهر مرة ثانية حتى غادرت الأسرة البيت متوجهة الى الكنيسة ٠

وبدا عندئذ فى حالة عقلية أفضل ٠ ووقف بالقرب منى لفترة ، **ثم جمع شجاعته وقال :**

ـ نيللى ، رتبى هندامى ٠ سأكون حسن السلوك !

فقلت :

ـ لقد آذيت شـــعور كاترين ٠ انك شـديد الكبرياء ٠

اذا كنت خجلا ، فيجب أن تطلب العفو • ورغم أن على تجهيز العشاء ، سأجد الوقت لتهيئتك حتى أن ادجار سيبدو كطفل بجانبك • فأنت رغم أنك أصغر سنا الا أنك أطول منه وعريض الكتفين ، ويمكنك أن تطرحه أرضا فى ثانية •

فأشرق وجه هيثكليف للحظة ، ثم اظلم ثانية حين قال :

– ولكن يا نيللى ، أود لو كان لدى شعر أشقر وبشرة فاتحة اللون ، وأن أكون حسن الملبس وغنيا مثله !

فاضفت قائلة :

– وتصرخ على ماما ، وتجلس فى البيت طول اليوم ! أوه يا هيثكليف •• انك تبدى روحا فقيرة ! انظر الآن فى المرآة وأخبرنى اذا لم تكن ترى نفسك جميل المنظر أيضا ، فأنت حاليا نظيف وشعرك مرتب، وتخلصت من مزاجك الحاد • وكل ما نعرفه ، أن أباك

كان ملكا فى بلدة ما بعيدة ، وأمك كانت ملكة أيضا ، ولقد اسرت وأنت طفل ، وأحضروك البحارة الأشرار الى انجلترا !

وهكذا واصلت الحديث ، وبدأ هيثكليف يظهر عليه الابتهاج ، عندما جاء صوت عجلات تتحرك على الطريق وتدخل الساحة انقطعت محادثتنا فى الحال • ورأينا من النافذة ادجار وايزابيللا لنتون ينزلان من عربة الأسرة وكانا مغطيين بالفراء ، وأخذت كاترين بيد كل منهما ، وأحضرتهما للمنزل •

وحثثت رفيقى أن يذهب ويظهر مزاجه الصافى ، ولكن لسوء حظه ، عندما فتح الباب المؤدى الى المطبخ من أحد الجوانب ، فتحه هندلى من الجانب الآخر ، فتقابلا ، وتضايق السيد لرؤيته نظيفا ومبتهجا ، أو ربما تذكر كلمات السيد لنتون ، فدفعه بحدة ، وأمر جوزيف أن يرسله الى الطابق العلوى حتى ينتهى العشاء • **وصرخ فيه :**

ـ ابعد يا غجرى ! ماذا ! هل تحاول أن تتشبه

بمن هم أعلى منك ! انتظر حتى أمسك بهذا الشعر الجميل ٠ ٠وسترى أنى سأشده حتى يطول قليلا !

وعلق ادجار لنتون من المدخل :

– انه طويل من قبل ؛ انه يشبه شعر الحصان !

لم تكن طبيعة هيثكليف العنيفة معدة لقبول هذه الاهانة من شخص يبدو أنه يكرهه كفريم . فامسك بطبق صلصلة التفاح الساخنة وألقى به فى وجه المتحدث تماما ٠ وبدأ ادجار يصرخ ، وأسرعت ايزابيللا وكاترين اليه ٠ وسحب السيد هندلى هيثكليف خارجا ، بينما أحضرت أنا منشفة المطبخ ونظفت بها أنف وفم ادجار بشيء من القسوة ، ووقفت كاتى بجواره مرتبكة، ومحمرة الوجه خجلا ٠

وقالت لادجار :

– كان لا يجب أن تتكلم معه ! والآن سيضربونه ، وأنا أكره هذا ! اننى لا أستطيع تناول غدائى ٠

فبكى الشاب قائلا :

ـ اننى لم أتكلم معه ، لقد وعدت ماما الا أقول له كلمة واحدة ٠

فقالت كاترين بازدراء :

ـ حسن ، لا تصرخ ، انك لم تقتل ٠ ان أخى قادم ٠ اهدأ !

وعند رؤية الوليمة على المائدة استعاد الزائران الصغيران ابتهاجهما ٠٠ وكانا جائعين بعد رحلتهما ، ولم يحدث ضرر حقيقى ٠ وأخذت أخدم على المائدة خلف كرسى سيدتى ٠ ورفعت كاتى لقمة الى شفتيها ثم أعادتها ثانية ٠ كان خداها حمراوين والدموع تنهمر من فوقهما ، فألقت بشوكتها على الأرض بسرعة وانحنت تحت مفرش المائدة لتخفى شعورها ٠ وظلت بائسة طول اليوم !

وفي المساء قاموا يرقصون ، فتوسلت كاتى لاطلاق سراح هيثكليف ، الذى حبس بأمر السيد ، حيث لم

يكن يوجد أحد ليرقص مع ايزابيللا ، ولكنها تحدثت بدون جدوى ، وكان على أن أحل محله • وزاد سرورنا بالرقص عند وصـــول فرقة من خمسة عشر موسيقيا وبعضهم كانوا مغنيين أيضا • وكانت السيدة فرانسيس تحب الموسيقى فقدموا لنا الكثير •

وكانت كاترين تحب الموسيقى أيضا ، ولكنهـــا قالت أن صوت الموسيقى أحلى عند قمة الســـــلم ، وذهبت صاعدة فى الظلام ، وتبعتها • وأغلقوا الباب السفلى ولم يلحظوا غيابنا مطلقا • ولم تتوقف عنـــد رأس السلالم ، بل استمرت وتسلقت السلم الخشبى الى أعلى المنزل ، حيث كان هيثكليف محبوسا •• ولقد استطعت أن حثها على الخروج ثانية بصعوبة بالغـة • وعندما خرجت كان هيثكليف معها •

وأخبرتهما باننى لا اقصد أن أشجعها على رحيلهما ولكن لأن هيثكليف لم ياكل على الاطـــــلاق منذ عشاء الأمس ، فساغمض عينى مرة لخداع السيد هنـــدلى • ونزل معنا وأجلسته على كرسى بجانب المدفاة فى المطبخ.

كان سقيما ولم ياكل الا قليلا · وجلس ورأسه بين يديه وظل صامتا ، وعندما استفسرت منه عما يفكر فيه ، أجاب :

ـ أحاول تنظيم تفكيرى ·· كيف ·· آخذ بثارى من هندل ؟ لا يهمنى كم انتظر ، اذا استطعت أن أنتقم فى النهاية ·

الفصل الثانى عشر

ليست صحبة على الاطلاق

وفى صباح أحد الأيام المشرقة من شهر يونيــو التالى سنة ١٧٧٨ ولد هيرتون آخر سليل لأسرة ايرنشو القديمة ٠٠ كان طفلا جميلا ، ومع ذلك قال الطبيب أن أمه كان لديها مرض الرئة منذ شهور عديدة ، وقد لا تعيش طويلا ٠

ورفض السيد هندلى أن يصدق ذلك ، ولكن فى احدى الليــالى انتابتها نوبة سعال وهى مستندة على كتفه ، فرفعها على ذراعيه ووضعت هى ذراعيها حــول رقبته ، وتغير وجهها واذا بها تموت فجأة ٠٠

وتركوا لى الطفل هيرتون في رعايتى كلية · وكان أبوه راضيا طالما يراه فى صحة جيدة ولا يســـمعه يبــكى ·

أما بالنسبة له ، فكان فى حالة يائسة · لم يكن لديه مكان فى قلبه سوى لزوجته ولنفسه فقط ، ولم يستطع تحمل الخســـارة ، فلم يبك ، ولم يدع الله بالسلوان ، بل لعن كل شيء وسلم نفسه لحياة التهتك · وترك جميع الخدم المنزل ، ولم يبق سوى جوزيف وأنا· وتوقف راعى الكنيسة عن زيارتنا ، ولم يقترب منا أى شخص له احترامه سوى ادجار لنتون الذى كان يأتى من أجل كاتى ·

كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ملـــكة على منطقتنا كلها : فتاة أبية متشبثة برأيها ، ولكنها وفية مخلصة بشكل مدهش ·· فمازال هيثكليف يحتفظ بمكانته فى قلبها بلا تغير · ويجد لنتون بكل شموخه صعوبة فى أن يصبح فى مثل منزلته لديها ·

ولم تظهر كاترين جانبها الوعر فى رفقة آل لنتون،

فكان لديها الادراك الطيب فى أن تخجل من أن تكون وقحة ازاء ما تلقاه منهم من حفاوة ، وحيث يتم استقبالها بمثل هذه الأخلاق الحميدة · وكانت مفعمة بالطموح ، فقادها ذلك أن تتخذ شخصية مزدوجة · فانخدع السيد والسيدة الكبيرين بطرقها الجميلة ، وأصبحا مغرمين بها ، وكسبت اعجاب ايزابيللا ، وقلب وروح أخيها ·

وبعد ظهر أحد الأيام غادر السيد هندلى البيت ، وهكذا أعطى هيثكليف لنفسه أجازة · لقد وصل عمره حوالى ستة عشرة عاما ، وكان قد خسر فى ذلك الوقت ميزة تعلمه المبكر ،وذبل احساسه الطفولى بالتفوق الذى نماه السيد ايرنشو الكبير بعطفه وتاييده · ولقد كافح طويلا ليواكب كاترين فى دراستها واســـــتسلم مع الأسف ·· ولكنه استسلم تماما عندما وجد أنه يجب أن يهبط الى أدنى من مستواه السابق · وعندئذ بدأ مظهره يعكس حالته العقلية ، ومشيته ينقصها الثقة ،

وكان يبدو سمجا قليل الكلام ، ويجد متعة فى اثارة كراهية من يقابلهم ·

كانت كاترين لا تزال رفيقة مخلصة له ، وعندما انتهى من عمله جاء الى المنزل ليبحث عنهـــا • كنت أساعدها فى ترتيب فستانها ، حيث كانت تتصرف وكأن المكان كله خاص بها وحدها ، وكانت قد أعلمت ادجار لنتون بغياب أخيها •

فسألها هيثكليف :

ـ لماذا ترتدين هذا الفســـتان الحريرى • هل سيأتى أحد الى هنا ؟

فاجابت كاترين مرتبكة بعض الشيء :

ـ لا أعرف •• ولكن يجب أن تكون فى الحقـول الآن يا هيثكليف !

فعلق الفتى قائلا :

ـ ان هندلى لا يحررنا عادة من وجوده ، لن أعمل اليوم أكثر من ذلك ! •• سأبقى معك ؟

واتجه نحو المدفأة ، وترددت كاترين للحظة ، ثم قالت بعد فترة صمت :

ـ تكلمت ايزابيللا وادجار لنتون على أنهما قد يمران بعد ظهر اليوم • وحيث أنها تمطر فلا أتوقع حضورهما ، لكن ربما ••

فاستمر قائلا :

ـ اطلبى من نيللى أن تقول بأنك خرجت يا كاتى ، لا تخذلينى من أجل هذين البائسين صديقيك السخيفين •

فاستفسرت قائلة :

ـ وهل يجب أن أظل جالسة معك دائما ؟ ما الفائدة التى أجنيها ؟ أنك تبدو طفلا ولا تستطيع التحدث بأى شىء يسلينى !

وبدا على هيثكليف الاستياء الشديد فقال متعجبا :

ـ لم تخبرينى من قبل بأننى قليل الكلام أو أنك لا تحبين مصاحبتى يا كاتى !

فاشتكت قائلة :

ـ انها ليست صحبة على الاطلاق عندما لا تعرف الناس شيئا ، ولا تقول شيئا !

فنهض هيثكليف ، ولم يكن لديه الوقت للتعبير عن شعوره أكثر من ذلك ، لأننا ســمعنا وقع حوافر حصان على الممر الحجرى بالخارج • وبعد طرقة رقيقة دخل الفتى لنتون ووجهه الأشقر الوسيم يلمع بالبهجة ... ولا شك أن كاتى لاحظت الفرق بين صــديقيها حيث دخل واحد ، وغادر الآخر •

الفصل الثالث عشر

نيللى غير مرغوب فيها

قال ادجار وهو ينظر الى :

– لم أحضر بسرعة ، أليس كذلك ؟

فاجابت كاترين :

– كلا ، ماذا تفعلين هنا ، يا نيللى ؟

فاجبت :

– عمل يا آنسة ! فقد أعطـــانى السيد هندلى الأوامر بأن أحضر أية زيارات خاصة يقوم بها لنتـون الصغير ·

فخطت من خلفي وهمست :

ـ خذى نفسك وعملك وأخرجى !

فاجبت بصوت مرتفع :

ـ انها فرصة طيبة الآن أن السيد غير موجود ، فهو يكره أن أقوم بعمـــلى وهو فى الحجرة · أرجو أن تعذرنى يا سيد ادجار !

سحبت الحرقة من يدى ، مفترضـــة أن ادجار لا يمكن أن يراها ، وقرصتنى فى ذراعى بشـــدة · فآلمتنى للغاية · ومع ذلك فقد وجدت متعة فى عقاب كبريائها ، **لذلك نهضت وصحت قائلة :**

ـ أوه ، يا آنسة ، انها حيلة بذيئة ! فليس لك حق فى أن تقرصينى !

فتعجبت قائلة :

ـ اننى لم ألمسك ، يا كاذبة !

وحركت أصابعها استعدادا لتكرار الفعلة وكانت

أذناها حمراوين من شدة الغضب · **فاجبت مظهرة العلامات على ذراعى :**

ــ ما هذا ، اذن ؟

وضربت الأرض بقدمها ،ثم تملكتها الروح الشقية فى داخلها فلطمتنى على خدى لطمة ملأت عينى بالدموع . **فصاح ادجار متعجبا :**

ــ كاترين ! كاترين .

وبان عليه الانزعاج لغلطتها المزدوجة : الكذب والعنف !

وأما هيرتون الصغير ، الذى يتبعنى فى كل مكان ، وكان جالسا بجوارى على الأرض فبدأ يبكى ويثرثر عن « العمة كاتى الشريرة » الشىء الذى حول غضبها نحوه ، فأمسكت بكتفيه وأخذت تهزه حتى أصبح الطفل شاحبا ، فأمسك ادجار بيديها بدون تفكير ليخلصه منها ·· وفى لحظة تحررت احدى يديها ، فمدت هذه اليد الى أذنه وقرصته بطريقة لا يمكن أن تؤخذ على أنها مزحة ·

فتوجه الزائر المهان الى المكان الذى وضع فيـــه قبعته بوجه شاحب وشفتين مرتعشـــــتين · **فسألت كاترين وهى تتقدم نحو الباب :**

ـ أين أنت ذاهب ؟

فاستفسر ادجار قائلا :

ـ هل يمكننى البقاء بعد أن ضرتينى ؟

فسكتت كاترين ، **واستمر هو قائلا :**

ـ لقد جعلتينى خائفا وخجلا منك ، ولن أحضر الى هنا مرة ثانية !

وبدأت دموع كاترين تنهمر

ثم قال :

ـ كما وأنك كذبت !

ـ حســـن ، اذهب ان أردت ! هيـــا ! والآن سأبكى حتى أصاب بالغثيان !

وسقطت على ركبتيها بجانب الكرسى ٠

احتفظ ادجار بتصميمه حتى الساحة ، ثم تطلع خلفه من خلال النافذة ٠ كانت لديه القوة فى الابتعاد ، تماما كالقوة التى يمتلكها القط فى الابتعاد حين يترك فارا شبه ميت أو طائرا ماكولا جزئيا ٠٠ وعاد وأسرع داخلا الى المنزل ثانية ، وأغلق الباب من خلفه ٠

وعندما ذهبت فيما بعد لأخبرهما بقدوم ايرنشو الى المنزل مخمورا بشكل واضح ، وجدت أن المشاجرة قد قربتهما لبعضهما ، وساعدتهمـــا فى خلع مظهر الصداقة وأقرا بنفسيهما حبيبين ٠

الفصل الرابع عشر

كلمات تعبر عن سوء الحظ

دفع تحذيرى بوصول السيد هندلى ، ادجار الى حصانه بسرعة ، وكاترين الى حجرتها ، وذهبت مسرعة لاخفاء هيرتون الصغير ، ويسحب الرصاصة من بندقية السيد خوفا من أنه قد يستخدمها فى حالة تهيجه .

ودخل ايرنشو مهمهما بسباب وشـــتائم بذيئة ولمحنى وأنا على وشك أن أبعد ابنـــه ، فالتقط الولد صارخا . وحمله الأب المخمور صاعدا به السلم .. ثم توقف وهو يترنح ، ونظر نحوى وأنا أتوسل اليه أن يحاذر ، ولكنه مال الى الأمام ، فقفز هيرتون فجاة محررا نفسه من المسكة الطائشة التى يمسكه بها ، وسقط !

وفى اللحظة المضبوطة وصل هيثكليف الى الطابق الأسفل ، وبحركة طبيعية أمسك بالطفل ووضعه على قدميه ٠ وأصبح وجهه مكفهرا بالغضب ونزل ايرنشو السلم ببطء باديا عليه الخجل نوعا ما ٠ **وقال لى :**

ـ انها غلطتك ٠ كان يجب أن تحفظيه بمنأى عن نظرى ٠٠ هل أصيب بأذى ؟

فصرخت حانقة :

ـ أذى ! اننى أتمنى أن تهب أمه من قبرها لترى كيف تعامله !

وأخذ زجاجة نبيذ وسكب بعضا منها فى كاس ، وأمرنا بنفاد صبر أن نذهب ! ٠٠ فحملت الطفل الى المطبخ وجلست لأهدىء من روعه ٠ واتجه هيثكليف ، على ما أظن ، الى الاسطبل ٠ واكتشفت ، فيما بعد ، أنه ذهب فقط الى الجانب الآخر من المطبخ حيث المنضدة ذات المسند لمرتفع وجلس مختفيا وراءها

كنت أهدهد هيرتون على ركبتى ، عنـــدما أطلت كاتى برأسها من الباب ، **وهمست :**

ـ هل أنت بمفردك يا نيلي ؟
ـ أجل يا آنسة ٠
ـ أين هيثكليف ؟
ـ يقوم بعمله في الاسطبل ٠
وتبع ذلك فترة سكون طويلة ، وسقطت دمعة من على خد كاترين ٠ وصاحت اخيرا :
ـ أوه ! انني تعيسة جدا !
فاجبت :
ـ مسكينة ، ان من الصعب ارضـاءك : فلديك أصدقاء كثيرون ، وليس لديك هموم تقريبا ، ومع ذلك لست راضية !
فقالت وهي تركع بجانبي بطريقتها الساحرة :
ـ نيلي ، هل تحتفظين بسر من أجلي ؟ أريد أن أعرف ما يجب أن أفعله ٠ لقد طلب مني ادجار لنتون اليوم أن أتزوجه ٠ وقبلتـــه ٠ أسرعي وقولي اذا كنت مخطئة أم لا ؟

ـ هل تحبينه ؟

ـ من تستطيع أن تقاوم ذلك ؟ طبعا أحبه ٠

ـ ولماذا تحبينه يا آنسة كيتي ؟

ـ حسن ، لأنه حسن المظهر ، وحلو المعشر !

ـ وماذا أيضا ؟

ـ وسيكون ثريا ، وسوف أحب أن اكون أعظم سيدة في المنطقة !

ـ اذن لماذا أنت غير سعيدة ؟ سيفرح أخوك بذلك ٠٠ والسيد الكبير والسيدة الكبيرة لن يعترضا ، على ما أعتقد ٠٠ سوف تهربين من منزل مضطرب ، خال من أسباب الراحة الى منزل ثرى محترم ٠ فاين الصعوبة ؟

فاجابت كاترين واضعة يد على جبهتها واخرى على صدرها :

ـ هنا ٠٠٠ وهنا ! حيث تعيش الروح ٠ ففي وروحي وفي قلبي أنا متأكدة من أنني مخطئة ٠

وجلست بجـــانبى وأصبح وجههـــا أكثر حزنا وارتعشت يداها ٠٠

ـ ليس لى الحق أن أتزوج ادجار لنتون ، واذا لم يدفع أخى هذا الشرير هيثكليف الى الحالة المتدنية التى أوصله اليها ، لما فكرت فى ذلك ، فزواجى من هيثكليف حاليا سوف يحط من قدرى ، وهكذا ، سوف لا يدرك كم أحبه ٠٠ وذلك ، لا لأنه حسن المظهر ، يا نيللى ، ولكن لأنه نفسى أكثر منى أنا !

وسمعت حركة طفيفة قبل انتهاء الحديث ، فأدرت رأسى فرأيت هيثكليف ينهض من المقعد ويتســـلل خارجا ٠ لقد أنصت حتى سمع كاترين تقـــول انه قد يحط من قدرها لو تزوجته ، وخرج عندئذ ٠٠

الفصل الخامس عشر

هروب هيثكليف

حثثت رفيقتى على التـــكلم بصـــوت منخفض فسالت وهى تنظر حولها بعصبية :

ـ لماذا ؟

فاجبت :

ـ ان جوزيف هنا ، واعتقد أن هيثـــكليف على وصول ٠

فقالت :

ـ أوه ، آنه لا يستطيع ان يســــمعنى من هنا ! اعطينى هيرتون أثناء قيامك باعداد العشـــاء ، ودعينى

أتناوله معك .. اريد ان أخدع ضميرى واجعله يؤمن بأن هيثكليف ليست لديه أية فكرة عن شعورى نحوه ، ليست لديه أية فكرة عن ذلك .. أليس كذلك ؟ .. انه لا يعرف كيف يكون حال الانسان عندما يحب ؟

فاجبت :

– اننى لا أرى سببا يجعله لا يعرف ، كما تعرفين أنت .. واذا كان هو يحبك ، وكنت صفيته ، فهو أتعس مولود على الاطلاق ! .. فعندما تصبحين زوجة للنتون ، سيفقد صديقته وحبيبته وكل شيء ! .. هل فكرت كيف ستتحملين الانفصال ، وكيف سيتحمل هو أن يتركك بلا صديق على الاطلاق فى هذا العالم ؟!

– يترك بلا صديق ! ننفصل ! كلا ، طالما احيا ! يجب أن يتخلص ادجار من كراهيته له . نيللى ، ألم يخطر ببالك مطلقا بأننا هيثكليف وأنا اذا تزوجنا سنصبح معدمين ، ولكننى اذا تزوجت ادجار فسأستطيع مساعدة هيثكليف بأن يعلو فى الحياة ، وأخرجه من تحت سلطة أخى ؟

ـ بنقود زوجك ؟! ٠٠ ان هذا لأسوأ سبب تعطيه لتكونى زوجة للفتى لنتون ٠

ـ انه ليس كذلك ! انه أفضل سبب ! هــذا من أجل الشخص الذى ٠٠٠ لا أستطيع التعبير أن حبى لادجار يشبه أوراق الشجر فى الغابات : ستتغير مع الزمن ، كما تتغير الأشجار فى الشــتاء ٠ أما حبى لهيثكليف ، فهو يشبه الصخور الجامدة الثابتة : مدعاة لبصيص من الابتهاج المحســوس ٠٠ لكنه ضرورى لوجودى ٠٠ نيلى ، انى أشعر بأننى هيثكليف نفسه ! ٠٠ أنه دائما فى عقلى ، لا كمصدر سرور ، ولكن كجزء منى !! ٠

ـاذا أمكننى أن أفهم أى شىء من كلامك الفـارغ يا آنســة ، فأعتقــد أنك اما لا تدرين أى شىء عن الواجبات التى تأخذينها على نفسك بالزواج ، واما أنك فتاة شريرة !

وأنهى دخول جوزيف حديثنا ٠٠

ومرت الساعات ولم يظهر أى أثر لهيثكليف ،

وأصبحت كاترين قلقة ، خاصة عندما أخبرتها بأنه فى الحقيقة قد سمع طرفا كبيرا من حديثها !

– يا ترى أين هو ٠٠ ماذا قلت ؟ لقد نسيت ٠٠ هل تضايق بسبب عصبيتى اليوم ؟ أود لو حضر ٠٠

كانت ليلة حالكة الظلام ، رغم أننا فى الصيف ، وحول منتصف الليل ، وبينما كنا جالستين ، هبت عاصفة فوق المرتفعات فى صخب كامل ٠٠ فكانت الريح عنيفة ، وكذلك كان الرعد والبرق ، وعمل كل منها على تمزيق شجرة عند منعطف المبنى ، وتحطيم جزء من المدخنة الشرقية ٠

ظلت كاترين فى الخارج بجانب البوابة منتظرة هيثكليف ، متصنتة منادية ، غير عابئة بالطقس ، فابتلت حتى الجلد ٠ ولم تخلع ملابسها المبتلة ، ووجدتها فى الصباح لا تزال جالسة بالقرب من المدفأة ٠ كانت ترتعد لا اراديا وأمرنى هندلى أن أذهب بها الى فراشها ٠

لن أنسى مطلقا المنظر ، عندما وصلنا الى غرفتها ،

لقد ازعجني ٠٠ اعتقدت أنها ستصاب بالجنون ، ورجوت جوزيف أن يركض لاحضار الطبيب ٠ كانت بداية حمى شديدة ٠٠ وأعلن الطبيب أنها مريضة بشكل خطير ، وأخبرني أن أطعمها سوائل فقط ، وأن آخذ حذري حتى لا تلقى بنفسها من النافذة ، ثم انصرف ، حيث كان لديه عمل كثير بالمنطقة المليئة بالمساكن المتناثرة ٠

لم أكن ممرضة لطيفة ، أما جوزيف والسيد ، فلم يكونا أفضل منى ٠٠ كانت كاتى متعبة ويصعب التحكم فيها كأى مريض٠وقامت السيدة لنتون بعدة زيارات لنا ، وعندما بدأت كاترين تسترد صحتها ، أخذتها الى مزرعة تراش كروس ٠ ولكن السيدة المسكينة مسز لنتون أصيبت بالحمى هى وزوجها وتوفيا فى خلال أيام ، الواحد تلو الآخر ٠

وعادت فتاتنا الشابة أكثر غرورا وأصبح مزاجها أكثر عنفا ٠٠ ولم نسمع عن هيثكليف مطلقا منذ ليلة العاصفة الرعدية ٠ وفى أحد الأيام كنت سيئة الطالع ،

وألقيت اللوم عليها فى سبب اختفائه · ومنذ تلك الفترة ولمدة شهور عديدة ، لم تتكلم معى الا باعتبارى مجرد خادمة .. لقد اعتبرت نفسها سيدة الآن ، ومدبرة المنزل ، واعتقدت أن مرضها الأخير أعطاها حقا خاصا فى الرعاية · ولقد قال الطبيب أنها لن تتحمل أن يقف الناس كثيرا ضد رغباتها ، وأنها يجب أن تترك على حريتها لذلك ، لم يجرؤ أحد أن يعصى لها أمرا ، وانزعج أخوها بالتهديدات الخطيرة لبعض النوبات التى كانت تصيبها غالبا أثناء غضبها ، فسمح لها بما تشاء ، ليتجنب ايقاظ مزاجها المضطرم ·

وبعد وفاة والده بثلاث سنوات قادها ادجار لنتون الى الكنيسة ، وتزوجها ، معتقدا أنه أسعد رجل فى الوجود ··

الفصل السادس عشر

العــودة

غادرت مرتفعات وذرينج وكان ذلك ضد رغبتى لاذهب مع كاتى الى منزلهــــا الجديد · وكان هيرتون الصغير فى حوالى الخامسة من عمره ، وكنت قد بدأت لتوى فى تعليمه حروف اسمه · فكان فراقا حزينا لى وله ·

وأصبحت كاترين ، فى مزرعة تراش كروس ، أفضل كثيرا مما كنت أتوقعه · وبدت مغرمة جــدا بادجار ، وأبدت حتى لأخته كثيرا من العاطفة · ولاحظت خوف السيد ادجار عميق الجذور فى أن يتسبب فى

أدنى استياء لها ٠٠ وتعلمت أن أكون أكثر حرصا مع لسانى حتى لا أتسبب فى اغضاب سيد رحيم مثله ٠٠ وفى خلال النصف عام ، رقد البارود مسالما كالرمل ، لأنه مازال بعيدا عن النـــار التى تفجره ٠٠ وكانت كاترين تعانى من الكآبة والصمت من حين لآخر ، وكان زوجها يحترم ذلك كنتيجة لمرضها السابق ، ولـــكنى أعتقد أنهما كانا يستحوزان حقـــا على سعادة عميقـة نامية ٠

ولكن هذه السعادة انتهت فجأة ٠٠

ففى أمسية ذهبية من شهر سبتمبر كنت قادمة من الحديقة بسلة من التفاح الذى قمت بجمعه ، والظلام ليس كاملا ، فالقمر يطل من فوق جدار الســـاحة ويصنع ظلالا غريبة فى أركان المبنى ٠

كانت عيناى على القمر ، عندما سمعت صوتا من خلفى يقول :

ـ نيللى ، هل هذه أنت ؟!

كان الصوت عميقا وغريبا فى رنته ، ومع ذلك هناك شىء فى طريقة نطقه لاسمى جعلته مالوفا لأذنى ٠ وتحرك شخص ما قرب باب المنزل ، وعندما اقتربت رأيت بوضوح أكثر ، رجلا طويلا فى ملابس داكنة ٠ ففكرت فى نفسى :

- من يمكن أن يكون هذا ؟

وسقط شعاع من الضوء على وجهه ٠ كان الخدان شاحبين ونصف مغطيين بالشعر الأسود ٠ وكانت الجبهة بارزة ، والعينان غائرتين وغريبتين ٠ لقد تعرفت على العينين فصرخت :

- ماذا ! لقد عدت ؟ أنه أنت حقا ؟!

فأجاب وهو ينظر الى النوافذ :

- أجل ، انني هيثكليف ٠ هل يوجـــــد أحد بالمنزل ؟ تكلمى ! أريد كلمة واحدة منهـــــا ٠٠ من سيدتك ٠ اذهبى وقولى أن شخصا من قرية جيمرتون يرغب فى رؤيتها ٠

ـ كيف ستتقبل ذلك ؟ كم تغيرت أنت ! هـل كنت جنديا ؟

فقاطعنى قائلا :

ـ اذهبى وبلغى رسالتى ، وأنا فى عذاب حتى تفعلين !

وعندما وصلت الى غرفة الجلوس ، كان السـيد والسيدة لنتون جالسين ســويا عند نافذة يطــلان منها على الأشجار والمنتزه الممتــد الى الوادى وقـرية جيمرتون ٠٠ وكان كل شيء يبدو فى سلام مدهش ، ولم أقدر على الكلام ٠

كنت فى طريقى لأن أغادر بالفعل دون أن أتفوه بالكلام ، عندما أجبرتنى حاسة غبائى الشخصى على العودة وتبليغ الرسالة ٠

ـ اغلقى الستائر يا نيللى ، واحضرى الشاى ٠ سأعود ثانية حالا ٠

وغادرت الحجرة وسأل ادجار بلا مبالاة من القادم ٠

ـ شخص ما لا تتوقعه السيدة • انه هيثكليف يا سيدى ، الذى كان يقيم عند عائلة السيد ايرنشو •

ـ ماذا ! الغجرى •• فتى المحراث ؟

ـ حاذر ! لا يجب أن تدعـــوه بهذه الأســـماء يا سيدى • لقد كانت محطمة القلب تقريبا عنـــدما هرب •

وبعد فترة قصـــيرة ، طارت كاترين صاعدة السلالم بوحشـــية وفاقدة النفس وقالت متعجبة وهى تلقى بذراعيها حول زوجها :

ـ أوه ، ادجار ، ادجار •• هيثكليف عاد !!

فصاح زوجها فى صوت مكتئب :

ـ حسن ، حسن ، لا داعى للتأثر هكذا !

فأجابت وهى تتراجع بفرحها قليلا :

ـ أعرف أنك لا تحبـــه ، ومع ذلك ، من أجل خاطرى ، يجب أن تصبحا صديقين ، الآن •• هل أقول له أن يصعد ؟

فقال :

ـ هنا ؟ أليس المطبخ مكان أليق به ؟

فتطلعت السيدة لنتون اليه بنظرة نصف غاضبة ونصف ضاحكة ، **ثم اجابت بعد فترة :**

ـ كلا ، اننى لا أستطيع الجلوس فى المطبخ ٠

وكانت على وشك أن تركض ثانية ، ولكن ادجار أوقفها ، **وقال يخاطبنى :**

ـ اطلبى منه أن يصعد ٠٠ وأنت يا كاترين ، لا داعى أن يشاهد أهل البيت جميعهم ، منظر ترحيبك بخادم هارب وكأنه أخوك !

الفصل السابع عشر

ترحيب ولا ترحيب

تبعنى هيثكليف صاعدا السلالم دون أن يتكلم ، وأوصلته الى حضرة السيد والسيدة اللذين كانت خدودهما الحمراء تدل على آثار خلاف ساخن • وقفزت السيدة للأمام وأخذت يديه وقادته الى لنتون ، ثم أمسكت بأصابع لنتون المعارضة وضغطت بهم على يدى هيثكليف •

ظهر الآن ، على ضوء الشموع والمدفأة ، التغير الذى طرأ على هيثكليف وأثار دهشتى أكثر من قبل • لقد أصبح رجلا طويل القامة ، نشطا ، رشيق القوام ،

وقد بدا سيدى بجانبه مجرد شاب صـــغير ، كما أن وقفتـــه المفرودة كانت تدل على أنه التحق بالجيش ٠ وكانت قسمات وجهه تعبر عن الوقار والحزم ٠٠ لقـد اختفت نظرات الحزى والانكسار ، وحلت مكانها نظرات الذكاء والفطنة ، وتكمن شراسة شبه متحضرة فى عينيه، ولكن سلوكه كان جادا ، فيـــــه تهذيب ، وخاليا من الخشونة ، وفاقت دهشة سيدى دهشتى ، وتحير للحظة فى كيفية استقبال صبى المحراث ، كما كان يدعوه ، **وقال فى النهاية :**

ـ اجلس يا سيدى ، ان السيدة كاتى ترغب فى استقبالك هنا وبالطبع يسرنى أن ألبى طلبها ، وأدخل السرور على قلبها !

فأجاب هيثكليف :

ـ وأنا أيضا ، وسأبقى لمدة ساعة أو ساعتين ٠٠!

وأخذ مقعدا قبال كاترين التى راحت تحدق فيه ، أما هو فلم يرفع عينيه نحوها كثيرا ، لكن فى كل مرة

كان يرمقها ، كانت عيناه تعبران عن سعادته الخالصة لوجوده بقربها . **وصاحت كاترين :**

– غدا سأعتقد هـذا حلمـا ، ومع ذلك فانت لا تستحق هذا الترحيب يا هيثكليف ، يا قاسى .. كيف طاوعك قلبك أن تبقى بعيدا ثلاث سنوات دون أن تبعث ولو بكلمة ؟!

فاجاب :

– انك لم تفارقى مخيلتى أبدا ، لقـد سمعت بزواجك يا كاتى قبل أيام قليلة . وعندما حضرت الى هنا ، كنت أنوى القاء نظرة عليك . ثم أذهب وأنتقم من هندلى ، وأنهى حياتى ، غير أن استقبالك لى وضع حدا لأفكارى هذه . لقد كافحت كفاحا مريرا منذ آخر مرة سمعت صوتك فيها ، وأرجو أن تغفرى لى . لأنى كافحت من أجلك فقط !

وقاطعه لنتون محاولا أن يتكلم بصوته العادى :

– كاترين ، أرجو أن تأتى للمائدة ، والا سنشرب الشاى باردا .

أخذت كاترين مكانها ، وجاءت الآنسة ايزابيللا ..
وانتهت جلستهم فى دقائق لم تستطع كاترين الأكل ولا حتى الشرب ، وابتلع ادجار بالكاد قطعة من الكعك .

لم يبق ضيفهم أكثر من ساعة ، وسألته قبل أن ينصرف ان كان سيذهب الى جيمرتون ، فاجابني :

ـ كلا ، انني ذاهب الى مرتفعات وذرينج ، لقد ذهبت صباحا متوقعا أن أراك هناك يا نيللى ، لتنبئنيى بأخبار كاترين ، فالتقيت بأشخاص يلعبون الورق فشاركتهم اللعبة ، وعندما لاحظ هندلى أننى أملك مالا كثيرا الآن ، دعانى لزيارته مرة أخرى . سأحاول أن أبقى هناك ، لأكون قريبا من كاترين . ان هندلى رجل جشع ، وسأدفع له ما يسد جشعه !

فقلت لنفسى :

ـ السيد هندلى يدعوه لديه ؟! أليس من الأفضل لهثكليف أن يبقى بعيدا .. ؟!

الفصل الثامن عشر

الآنسة ايزابيللا

أخـذ هيثكليف ـ الذى يجب أن أناديـه فى المستقبل بالسيد هيثكليف ـ يتردد الى مزرعة تراش كروس بشكل حذر فى البداية ٠ ورأت كاترين أيضا أن من الحكمة أن تكون معتدلة فى اظهار سرورها فى استقباله ٠ وزال قلق سيدى ادجار ثم تحول قلقه بعد ذلك الى اتجاه آخر ٠

لقد ظهر سبب جديد للقلق من متاعب جديدة لم نتوقعها ٠٠ ذلك بأن ايزابيللا قد انجرفت منجذبة بشكل مفاجىء نحو الزائر ، وكانت آنذاك قد بلغت

الثامنة عشرة من عمرها ، طفلة فى سلوكها حادة الذكاء ، عصبية المزاج اذا أثيرت ٠ أما أخوها الذى كان يحبها باعزاز ، فقد أقلقه هذا الوضع ، وخاصة أن زواج أخته من شخص مجهول الأصل يلحق العار به وبعائلته ، وكان يحس أن طبيعة هيثكليف لم تتغير ، رغم أن مظهره الخارجى قد تحسن كثيرا ٠

لقد لاحظنا فى الآونة الأخيرة ، أن ايزابيللا شاحبة الوجه تعيسة صعبة الارضاء ٠٠ ولقد أعطيناها العذر الى حد كبير لضعف صحتها بصفة عامة ٠ وعندما هددتها كاترين ، فى أحد الأيام ، بانها سترسل أحدا لاستدعاء الطبيب ، صرخت ايزابيللا فى الحال بأن صحتها فى حالة جيدة جدا وأن ما يتسبب فى شقائها هو سوء معاملة كاترين لها !

فصرخت كاترين باستغراب :

ـ معاملتى لك خشنة يا ايزابيللا ؟ ومتى عاملتك بخشونة ؟ تكلمى ٠٠ !!

فاجابت ايزابيلا باكية :

– البارحة

– البارحة ؟ متى ؟

– عندما كنا نسير قرب المستنقعات مع هيثكليف. طلبت مني أن ابتعد عنكما ، بينما بقيت انت معه !

فقالت كاترين ضاحكة :

– وهل هذه هي فكرتك عن معاملتي السيئة ؟

– لقد رغبت في ابعادي ، لأنني أردت أن أكون مع . . .

فقالت كاترين وهي ترى ترددها :

– حسن ؟

– أن أكون معه ، ولا أبعد عنه ! انك أنانية يا كاتي ، فأنت لا تريدين الحب لأحد غيرك !

– أتمنى أن أكون قد أخطات فهمك ، يا ايزابيلا؟

– كلا ، لم تخطئى ٠٠ فأنا أحبه أكثر مما تحبين ادجار ، ولا بد أن يبادلنى الحب اذا تركت له المجال !

فقالت كاترين :

– ان جهلك لشخصية هيثكليف الحقيقية يجعلك تحلمين وكأنه ذو قلب من ذهب ، انه رجل عنيف ، قاس ، لا رحمة فى قلبه ٠٠ ولا يمكن أن يقع فى حب أى شخص ينتمى لعائلة لنتون ، وان فعل ذلك فيكون رغبة فى السيطرة على مالك ٠ هذه هى صورتى عنه ، وأنا صديقته وأعرفه جيدا ٠٠

فصاحت ايزابيللا :

– يا للعار ! يا للعار ! انـك أسوأ من عشرين عدو ، انك صديقة سامة !

فقلت :

– ابعديه عن تفكيرك يا آنسة ،لقد تكلمت السيدة كاترين بشدة ، لكنى لا أستطيع القول أنها مخطئة ، فلديها علم بقلبه أكثر منى أو من أى شخص آخر ٠٠

والناس الأشراف لا يخفون أفعـــالهم ٠ فكيف كان يعيش ؟ وكيف أصـــبح غنيـــا ؟ ٠٠ ولمـــاذا يبقى فى مرتفعات وذرينج مع رجل هو يمقته ؟ ٠٠انهم يقولون أن السيد هندلى أصبح أسوأ وأسوأ منذ أن حضر ٠ فهم يجلسون يلعبون الورقة طوال الليل ، ويشربون ويقترض هندلى المال بضمان أرضه ليدفع ديونه ٠

فاجابت :

ــ انك سيئة كالآخرين يا نيللى ، اننى لن أستمع لقصتك ؟

وفى اليوم التالى ، اضطر السيد ادجار أن يذهب الى احدى المدن القريبة ، لينهى بعض أعماله ، وعلم هيثكليف بذلك فحضر مبكرا عن المعتـــاد ٠ وكانت كاترين وايزابيللا جالستين فى المكتبة والصمت والجفاء يخيم عليهما ٠ اذ كانت الآنسة الصغيرة قد انزعجت لحماقتها الأخيرة فى اظهار شعورها المكنون ، بينما كانت كاترين تشعر بالاهانة ومهيئة لمعاقبـــة رفيقتها ٠٠ وضحكت كاترين عندما رأت هيثكليف يمر من خلف

النافذة ، بينما كانت ايزابيللا تميل برأسها على كتاب فظلت غير واعية باقتراب الزائر حتى فتح الباب ، وأصبح الوقت متأخرا لكى تهرب ، رغم انها كانت تود أن تفعل ذلك ·· **فهتفت كاترين بفرح وهى تسحب كرسيا الى المدفاة :**

ـ ادخل يا هيثكليف · انك الشخص المناسب الذى نختـاره نحن لصحبتنا ·· أقـــدم لك ، وكلى فخـر ، من يغـــرم بك أكثر منى · انها ايزابيـــللا أخت زوجى الصغيرة المسكينة ، ان قلبها يتحطم من أجلك ! لا ، لا يا ايزابيللا ، لن تهربى !!

قالت الجملة الأخيرة وهى تمسك بمعصم الفتاة التى حاولت النهوض ·· ولم يبد هيثكليف أى اهتمام ، أما ايزابيللا فقد همست راجية كاترين أن تتركها ، **ولكن كاتى صرخت قائلة :**

ـ بالطبـع لا ! فأنا لا أحب أن ينعتنى أحـد بالأنانية · هيثكليف ، لماذا لا يبدو عليك الفرح ؟!

نظر هيثكليف الى ايزابيلا نظرة جامدة وقال :

– اعتقد انـك مخطئة ، فهى تود أن تهرب من لقائى حاليا ، على أية حال !

لم تستطع الفتاة المسكينة تحمل ذلك · وأخذ وجهها يتبدل بين الشحوب والاحمرار · وبقيت كاترين متمسكة بها لا تسمح لها بالافلات الى أن بدأت فى استخدام أظافرها · **وسألها هيثكليف عندما خرجت واغلقت الباب من خلفها :**

– لماذا تعذبين هـذه المخلوقة المسـكينة بهذه الطريقة يا كاتى ؟ انـك لم تصـدقى القول ، أليس كذلك ؟!

اجابت :

– أؤكد لك اننى قلت الصدق !

فسأل بعد فترة وجيزة :

– أليست هى الوريثة الوحيدة لشقيقها ؟

فاجابته كاترين :

ـ أجـل ، الا اذا أنجبت ولـدا ٠ انسى هـــذا الموضوع ٠٠ انك مغرم بالتفكير فى ممتلكات الناس !

وطردا الموضــــوع حقا من محادثتهما ، ولكنى شاهدت هيثكليف يبتسم لنفسه بشكل شرير عندما غادرت كاترين الحجرة ٠٠

الفصل التاسع عشر

النفوذ الشرير

كانت زيارات السيد هيثكليف تضـــايقنى كما تضايق سيدى ، أما اقامته الطويلة فى المرتفعـات فكانت لغزا بلا حل ، وكان فضولى يدفعنى للذهاب اليها ، ولكن عندما أتذكر عادات السيد هندلى السيئة اليائسة ، أعود فأحجم عن الذهـاب مرة أخرى لهذا المنزل التعيس ٠

وفى أحد الأيام ، كنت فى طريقى الى جيمرتون ومررت بالقرب من المرتفعات ٠ كانت بعد الظهيرة ، وشمس الخريف الباردة تضىء السماء ٠٠ وذكرتنى

أشعة الشمس بالصيف ·· واقتربت من الحجر الدال على الطريق عبر المستنقعات ··· كان مكانى المفضل فى صباى ··· كنت أحبه أنا وهندلى من عشرين عاما مضــت · وعندمــا انحنيت رأيت فتحة فى أســفل الصخرة،حيث كنا معتادين أن نحتفظ بكنوزنا الصغيرة فيها ، وما زالت مليئة بالقواقع والأحجار الملساء ، وبدا لى وكأنه حقيقى أن أرى رفيقى فى اللعب جالسا على النجيل الأخضر ·

ورفع الطفل رأســه وحدق الى وجهى مباشرة ، ثم اختفى · تابعت طريقى ، وعندما وصلت الى بوابة المرتفعات وجدته ينتظرنى ، فحدثتنى ظنونى بأنه لا بد أن يكون هيرتون ،،صغيرى ··· انه لم يتغير كثيرا منذ أن تركته من عشرة أشهر ··

فصرخت متناسية مخاوفى الحمقاء :

ـ حماك الله يا صغيرى الحبيب ! هيرتون ، أنا نيللى ·· مربيتك ! هل نسيتنى ؟!

فتراجع للخلف ، وانحنى والتقط حجرا كبيرا ·

انه لم يعرفنى • وبدأت أتكلم لكن الحجر اصابنى فى راسى واطلق الصغير سلسلة من الشتائم ولوى بوجهه البرىء بتعبيرات شريرة ملأتنى رعبا ، وقبل أن يبكى سحبت برتقالة من جيبى وقدمتها له • وبعد تردد أخذها من يدى • فسألته :

– من علمك هذه الكلمات الجميلة يا صغيرى ؟ راعى الكنيسة ؟

فشتمنى ، فأسرعت بتقديم برتقالة أخرى ولكنى احتفظت بها بعيدة عن متناول يده وقلت له :

– اخبرنى من يعطيك الدروس وساعطيك هذه البرتقالة • من هو معلمك ؟

– بابا •• ؟

– وماذا تعلمت منه ؟

فقال :

– لا شىء ، انه لا يحبنى لأننى أشتمه !

ـ ومن علمك الشتائم ؟!

ـ هيثكليف !!

فسألته اذا كان يحب هيثكليف :

ـ أجل ٠

وحاولت أن أعرف السبب ٠ فلم أفهم الا هذه الجملة :

ـ لا أدرى ، انه يعاقب بابا لما يفعله لى ـ انه يشتم والدى ويقول لى أفعل ما تريد يا هيرتون !

ـ الا يعلمك راعى الكنيسة القراء والكتابة ؟

ـ كلا ٠ وعدنى هيثكليف أن يكسر له أسنانه اذا حضر ٠

فوضعت البرتقالة فى يده وقلت له أن يخبر والده بأن امرأة اسمها نيللى دين ، تنتظره فى الخارج ٠٠ ودخل الى المنزل ، وبدلا من هندلى ظهر هيثكليف عند الباب ، فاستدرت وأخذت أجرى مسرعة فى الطريق خائفة ، وكأننى قد رأيت روحا شريرة !

الفصل العشرون

المشـــاجرة

عندما حضر هيثكليف بعد ذلك ،كانت ايزابيللا ، بالمصادفة ، تطعم الحمام فى الساحة • ولم يكن من عادته أن يظهر لها أية عاطفة خاصة ، لكن فى هـذه المرة ، عندما رآها ، نظر فى حرص الى واجهة المنزل ، وكنت مختبئة خلف نافذة المطبخ • فتقدم منها وقال لها شيئا ، فبدا عليها الاضطراب وحاولت الافلات ، ولكنه وضع يده على ذراعها ليمنع ذلك ، فأشاحت بوجهها بعيدا • وبعد نظرة سريعة الى المنزل معتقدا أن أحدا لا يراه ، أحاطهـا بذراعيه • **وهنا صرخت قائلة :**

ـ يا للعار ! يا للعار !

ففجأنى صوت كاترين من خلفى :

ـ من هناك يا نيللى ؟

فأجبت :

ـ صديقك التافه ! اننى أسائل نفسى أى عذر سيجده ليبرر مغازلته للآنسة ، بينما قال لك أنه يكرهها !

واقتربت كاتى وشاهدت الصراع بين هيثكليف الذى يحاول ضمها اليه ، وايزابيللا تحاول الفرار من بين ذراعيه ، وركضت بالفعل الى الحديقة . وبعد لحظات فتح هيثكليف الباب . **فاستوقفته كاترين قائلة :**

ـ ماذا تريد يا هيثكليف فى عملك هذا ؟ ألم أطلب منك أن تترك ايزابيللا وشأنها !

فأجاب بخشونة :

ـ وماذا يهمك فى ذلك ؟ من حقى أن أقبلها اذا

رغبت فى ذلك · أننى لست زوجك لتغارى على . ولدى بضع كلمات صريحة أود أن أقولها لك ·· أريدك أن تعلمى أن معاملتك لى كانت مخجلة ! هل تسمعين ؟ واذا كنت تعتقدين أنى لن انتقم لهذه المعاناة ، فأنت مخطئة ·· وعلى كل أشكرك لأنك أطلعتنى على سر أخت زوجك ، الذى سوف أحسن استغلاله ·· !

فقالت كاترين فى تعجب واندهاش :

ـ ما هذا الجانب الجديد فى شخصيته ؟

فاستمر هيثكليف قائلا بانفعال أقل :

ـ اننى لا أرغب فى الانتقام منك · فأهلا بتعذيبك لى حتى الموت من أجل تسليتك ·· ولكن اسمحى لى أن أسلى نفسى قليلا بنفس الطريقة ·· لقد هدمت حياتى فهل تنتظرين أن أكون قديسا ؟!

فصرخت كاترين :

ـ أود ، انك تريد أن تدخل البؤس القلوب الذين حولك ، وخاصة بعد أن عاد ادجار لمزاجه الطبيعى معك

وبدأت أشعر بالارتياح والأمن ، وهكذا تصمم على اثارة الشجار ... تشاجر مع ادجار ، اذا أردت ، وخادع أخته ، لقد اخترت أفضل طريقة للانتقام لنفسك منى ٠

انتهت المحادثة ، وجلست كاترين بجوار المدفأة قلقة تعيسة لا تستطيع السيطرة على أعصابهـــا ٠٠ ووقف هيثكليف عاقدا ذراعيه ، وغارقا فى أفكاره السوداء ٠ وغادرتهما هكذا لأرى السيد ادجار الذى وصل فى هذه اللحظة ، **وقلت له :**

– سيدتى فى المطبخ ٠ انها مستاءة من سلوك هيثكليف !

وشرحت له قدر المستطاع ما قد حصل ٠ **فقال :**

– لم أعد احتمل هذا الوضع ! استدعى لى اثنين من رجالى يا نيللى ٠

ونزل الســلالم وتبعته الى المطبـخ حيث عـاد هيثكليف وكاترين الى شجارهما ، وسكتا عند رؤيته ٠ **وقال ادجار لهيثكليف :**

ـ لقد صبرت عليك يا هيثكليف حتى الآن ، وسمحت لك بالدخول هنا لأن كاترين رغبت فى صيانة الصلة • لكن وجودك سم أخلاقى سيؤذى أطهر الناس • ومنعا للشر أطلب منك مغادرة المنزل حالا ولآخر مرة •• !

فنظر هيثكليف اليه باستهزاء وهو يقول :

ـ ان حملك هذا يهددنى يا كاتى وكأنه أسد •

عندئذ أومأ لى سيدى لأحضر الرجلين •• ولكن كاتى التى ارتابت فيما سيحدث ، جذبتنى الى الخلف وأغلقت الباب الداخلى ، **وقالت لزوجها :**

ـ ان لم تكن لديك الشجاعة لمهاجمته ، فاعتذر عن ذلك •

حاول ادجار أن يأخذ المفتاح منها ولكنها مدعاة للأمن ألقت به فى بالمدفأة المشتعلة •• وهنا ألمت بادجار نوبة غضب ، فأخذ يرتجف وامتقع وجهه وأصبح كالأموات ، **عندئذ قال صديقها :**

ـ استمتعي يا كاتي بمنظر هذا الجبـان الذي فضـلته علي ! هل هو يبكي ، أم سـيغمى عليه من الخوف ؟!

ثم ركل الكرسي الذي كان ادجار متكئا عليه ٠ وهنا هجم عليه ادجار ولطمه لطمة قوية ، فترنح لها للحظة ، وخرج من الباب الخلفي الى الساحة ومن هناك الى المدخل الأمامي ٠ **وعند ذلك صاحت كاترين :**

ـ وهكذا ، سينتهي مجيئك الى هنا ٠ انصرف الآن ، لأنه سيعود اليـك مسلحـا ومعه مجموعة من الخدم ٠ لقد أسأت التصرف يا هيثكليف ٠٠ !

ـ وهل تظنين انى سأخرج من هنا قبل أن أرد له ضربته ؟

عاد ادجار ومعه اثنـان من العمـال وسـايس الاسطبل ٠٠ وهنا فكر هيثكليف ، وقرر تجنب مواجهة ثلاثة من الخدم فكسر قفل الباب الداخلي وهرب ٠ أما كاتي التي استولى عليها الاضـطراب ، طلبت مني مرافقتها الى الطابق العلوي **وقالت :**

ـ أكاد أجن يا نيللى ، فرأسى على وشك الانفجار ٠ اطلبى من ايزابيللا أن تتجنبنى ، فهى سبب كل ذلك ، واذا أثار أحد غضبى أكثر من ذلك فسأزداد جنونا ٠٠ واذا رأيت ، يا نيللى ، ادجار الليلة مرة أخرى ، اخبريه بأننى مهددة بالمرض ٠٠ أريد أن أبعث فيه الخوف ٠٠ بالاضافة الى أنه قد يأتى ويبدأ سلسلة شكواه ٠٠ وسأرد عليه بالتأكيد ويعلم الله الى أين سننتهى ! ٠٠ اذ لم أستطع أن أحتفظ بهيثكليف كصديقى ٠٠ واذا حاول ادجار أن يكون غيورا وأنانيا ، فسأحاول أن أكسر قلوبهما عن طريق كسر قلبى أنا ٠ نيللى ، أرجو ان تهتمى بى أكثر فأنا فى حاجة الى مساعدتك !

لم أرغب فى اخافة زوجها معتقدة بأنها تستطيع السيطرة على نفسهـا ، لذلك لم أقل له شيئا عندما شاهدته يصعد السلالم ٠ **وقال بدون أى غضب فى صوته :**

ـ لن أبقى ياكاترين ، لدى سؤال واحد لأسأله فقط : هل ستتخلى عن هيثكليف أم ستتخلى عنى ؟

فقالت سيدتي مقاطعة :

ـ بحق السماء ! دعنا من هذا الحديث الآن ! ألا ترى انني لا أستطيع احتمال المزيد ؟

ـ أجيبي عن سؤالي · فعنفك لم يعد يفزعني · ويمكنك ان تكوني هادئة عندما تريدين ·

ـ أرجوك أن تتركني ··· ألا ترى أنني لم أعد قادرة على الوقوف ؟!

وأخذت تضرب الجرس حتى كسر ، وكنت أنتظر بالخارج ولكني لم أسرع بالدخول · كان حنقها كافيا ليجعل القديس يفقد أعصابه ، اذ رقدت هناك وأخذت تخبط برأسها على ذراع الكنبة وتجز على أسنانها ، ووقف ادجار متطلعا اليها في قلق مفاجيء ، وطلب مني أن أحضر ماء ، فهمست قائلة :

ـ لا تخف !

لم أكن أريده أن يستسلم ، رغم انني كنت أيضا خائفة ، واخبرته بأنها ترغب في أن توقع الذعر في

قلبه بنوبة من نوباتها · وكانت فى حالة طيبة حيث سمعتنى ، وفهمت قصدى ، لأنها انتفضت من فراشها وعيناها تبرقان واندفعت متوجهة الى غرفتها ، فأشار ادجار بأن أتبعها ، ولكنهـا أغلقت الباب بالمفتاح ، وبقيت ثلاثة أيام رافضة أن تتناول شيئا من الطعام !

أما السيد ادجار فكان يقضى وقته فى المكتبة · وكان له حديث خاص مع الآنسة ايزابيللا حيث حذرها من هيثكليف · وقال لها انها اذا شجعته فسينهى ذلك كل الروابط بينهما كأخ وأخت ·· !

الفصل الحادى والعشرون

المــرض

أخذت ايزابيللا تهيم على وجهها حول المنزل وهى تبكى فى صمت وبدموع غزيرة ٠٠ أما أخوها فكــان يغلق على نفسه بين الكتب التى لا يفتحها مطلقا ، على الأمل اليائس أن تتأسف كاترين على تصرفها وتطلب العفو ٠ أما كاترين نفســها فاستمرت فى رفضــــها للطعام ، على أســـــاس أن غيابها عن المائدة قد يجلب ادجار اليها راكعا ٠ وأثناء كل هذا ٠ واصلت القيام بواجباتى كالعادة معتقدة أننى الشخص العاقل الوحيد فى هذا المنزل ٠

وأخيرا فتحت كاترين بابها ، فى اليوم الثالث أو

بالأحرى فى وقت متأخر من الليل ٠٠ فبدت شاحبة مرهقة ، وطلبت الطعام والشراب حيث كانت نعتقد أنها ستموت ٠ فأحضرت لها شـايا مع خبز وزبد ، فتناولته بشغف ، **ثم سألتنى :**

– ماذا يفعل ذلك المخلوق عديم الشعور ؟

فأجبت :

– ان كنت تقصدين السيد ادجار فهو فى حالة جيدة ، ويقضى معظم أوقاته بين كتبه !

لو كنت أعرف حالتها الحقيقية لما تكلمت هكذا ، لكننى لم أستطع التخلص من فكرة أنها تمثل جزءا من مرضها ٠ **فصرخت قائلة :**

– يجلس بين كتبه وأنا فى طريقى الى القبر ! أوه ، هل يعرف كم تغيرت ؟ وحملقت فى صورة وجهها فى المرآة المعلقة على الجدار المقابل ، **واستمرت قائلة :**

– اذا كنت متأكدة من أن ذلك سيقتله ، لقتلت نفسى فى الحال !

لم تستطع تحمل الفكرة التى وضعتها فى راسها عن عدم مبالاة ادجار ، ثم راحت تتأوه من الحرارة التى تلتهم جسدها ، وهى تتقلب من جنب الى آخر ، ثم نهضت ، وطلبت منى أن أفتح النافذة ·· كان هذا منتصف الشتاء فاعترضت · وبدأ التعبير المرسوم على وجهها يزعجنى بشكل مفزع ، وذكرنى بمرضها السابق وعن تحذير الطبيب بألا يقف أحد ضد رغباتها · وأخذت تمزق الوسادة بأسنانها وبدت عليها آنئذ بهجة طفولية فى سحب الريش من الفتحات التى أحدثتها والتعرف على الطيور التى كانت تكتسى بهذا الريش ، **فقلت لها :**

ـ تمددى ، واغمضى عينيك ، فالنوم سيريحك !

ـ آه ، ياليتنى أعود الى طفولتى ! الى فراشى فى بيتى القديم ! وأسمع صوت الريح وهى تهب من خلال الأشجار المجاورة للنافذة ! ·· دعينى أشعر بها ·· دعينى استمتع بصوت الريح يأتى من خلال النافذة !

وفتحت النافذة لبضع دقائق لارضائها ، فاندفعت

ريح مثلجة من خلالها ، فقمت وأغلقت النافذة ثانية ٠
وسألتني فجأة :

ـ ما هي المدة التي أغلقت فيها على نفسي هنا ؟

فأجبت :

ـ أربع ليال وثلاثة أيام ٠ مدة طويلة لتعيشيها على الماء البارد والأعصاب التالفة !

ـ كانت عددا من الساعات المملة ، أذكر انني كنت في حجرة الجلوس بعد ما حدثت المشاجرة ٠٠ وركضت الى الطابق العلوي ٠٠ وعندما أحكمت اغلاق الباب بالمفتاح ، خيم فوقي سواد تام ٠ ولم أستطع أن أشرح لادجار تأكدي من شعوري بالاصابة بنوبة مرض اذا استمر في مضايقتي ٠

ثم امرتني قائلة :

ـ افتحي النافذة على مصراعيها ثانيـة ٠ انك لا تعطيني فرصة للحياة ٠٠ حسن سأفعل ذلك بنفس !

وغادرت السرير قبــل أن أستطيع ايقافهــا ، وقطعت الحجرة مترنحة من المرض ، ثم فتحت النافذة غير عابئة بالهواء الذى كان يقطع الجسم كالسكين ، فاستعطفتها كى تبتعد عن الهواء ، وحاولت أن أعيدها الى فراشها عنوة ولكن قوة الحمى فيها قاومتنى ٠

كنت أتدبر لفها بشىء دون أن أدعها تفلت من يدى ، عندما سمعت حركة مقبض البــاب ودخــول ادجار ٠ فصرخت قائلة وأنا أشير اليه أن يخفى تعجبه الذى ظهر على شفتيه عندما رأى المنظر :

ـ آه يا سيدى ! أن سيدتى المسكينة مريضة ، ولم يعد بامكانى السيطرة على تصرفاتها ٠ من فضلك تعال واقنعها بالذهاب للفراش !

فقال وهو يسرع نحونا :

ـ كاترين مريضة ! اغلقى النافذة يا نيللى !

كان صامتا منزعجا للتغير فى مظهر كاترين ، وهمهمت بشىء عن عدم معرفتى بحالتها من قبل ، ولكنى

شعرت أننى أبديت شرحى بارتباك • وبدا على ادجار الضيق وأخذ زوجته فى ذراعيه • ولم تبد فى البداية أى علامة على التعرف عليه ، ولكنها ركزت بالتدريج انتباهها عليه • **وقالت بصوت غاضب :**

ـ آه ! أأتيت أخيرا يا ادجار ؟ انك من الأشياء التى لا توجد مطلقا عند طلبها •• سوف تشعر بالأسف عندما أصبح فى القبر •• حيث سأكون قبل انتهاء الربيع !

ـ كاترين ! هل أنا من الأشياء بالنسبة لك ؟ هل تحبين هذا البائس هيث •••

ـ اذا ذكرت هذا الاسم فسأنهى حياتى فى الحال بالقفز من هذه النافذة ! عد الى كتبك ، فأنا لا أريدك الآن !

فقلت :

ـ ان عقلها يشرد يا سيدى ، انها تهذى طوال الليـل ، ويجب أن نـكون حذرين من ازعاجهـا فى المستقبل •

فاجاب ادجار :

ـ لا أريد منك مزيدا من النصائح ••• ، انت تعرفين طبيعة سيدتك ولقد شجعتينى أن أقف ضدها ، ولم تعطينى أى فكرة عن حالها طوال هذه الأيام الثلاثة• انها قسوة !

وبدأت أدافع عن نفسى شاعرة بأنه شىء سىء أن أعاتب على أخطاء غيرى ، ثم عزمت على طلب مساعدة طبية على مسئوليتى ، وغادرت الحجرة •

الفصل الثانى والعشرون

الهـــاربان

عند مرورى بالحديقة رأيت شيئا أبيض معلقا فى حلقة مثبته فى الحائط ٠٠ كان كلب الآنسة ايزابيللا الصغير مربوطا بمنديل وكان على وشك الاختناق ٠٠ وبدأت فى تخليص الحيوان عندما خيل لى سماع صوت حوافر جياد تركض بسرعة من بعيد ، ولم أعر أى انتباه لهذه الضوضاء الغريبة فى الساعة الثانية صباحا حيث كان عقلى مزدحما بأشياء كثيرة ٠

كان الدكتور كنيث ـ الرجل الجاد الصريح ـ قادما لتوه من منزله لزيارة رجل مريض بالقرية ، وجاء معى فى الحال ٠ وقال :

ـ نيلى ، لا بد أنه يوجد سبب لذلك • أن فتاة قوية فى صحة كاترين لا يمكن أن تصبح مريضة هكذا بدون سبب • ما الذى سبب ذلك ؟

فاجبت بحذر :

ـ سيخبرك السيد ، ولكنك تعرف طبيعـة آل ايرنشو العنيفة ، والسيدة كاترين أسوأ من أى فرد من تلك العائلة •

وبعد فحصـه للحالة بنفسه تحدث بأمل للسيد لنتون فى شفائهـا لو أننا احتفظنا بهدوئهـا التـام والمستمر . وأخبرنى أن الخطر ليس فى الموت بل فى فقدان السيطرة على العقل ·

لم يغمض لى جفن فى تلك الليلة ، وكذلك السيد لنتون . واستيقظ الخدم مبكرين عن المعتاد ، وكان الجميع نشيطين فيما عدا الآنسة ايزابيللا ، وبدأ الجميع يلاحظون تأخرها فى النوم ·· وسأل أخوها اذا كانت قد استيقظت وبدا عليه الاستياء لقلة اهتمامها بحالة كاترين •

وجاءت احدى الخادمات تصرخ وهى فاغرة فاها :

ـ أوه ! أوه ! ماذا سيصيبنا بعد ذلك ؟ سيدى ، سيدى ، أن آنستنا الصغيرة ٠٠٠

فصحت فيها قائلة :

ـ بهدوء ! ٠

وقال مستر لنتون :

ـ أخفضى صوتك ياماری ، ما الأمر ؟

فصرخت الفتاة قائلة :

ـ لقـد ذهبت ! لقـد ذهبت ! وذهب معهـا هيثكليف !

كانت الفتاة بالقرية وقابلت الصبى الذى يحضر لنا الحليب ، واخبرهـا أن السيد هيثكليف والآنسة ايزابيللا قد توقفا لتثبيت حدوات الحصان على بعد ميلين من جيمرتون ، عند منتصف الليل !

فسألته :

ـ هل نحاول أن نعيدها ؟ ماذا علينا أن نفعل ؟

فاجاب السيد :

ـ لقد ذهبت بمحض ارادتها ٠ لا تزعجيني بها بعد ذلك ٠ ومن الآن فصاعدا فهي أختي بالاسم فقط !

ولم يذكرها لي بعد ذلك ، الا عند توجيهي لأرسل لها ما يخصها الى منزلها الجديد ـ أينما كان ـ عندما أعرفه !

الفصل الثالث والعشرون

شهران كئيبـــان

ظل الهاربان غائبين لمدة شهرين ، عانت فيهما كاترين الكثير ، واستردت صحتها بالتدريج من أسوأ نوبة مرض ، تبين أنها كانت حمى فى المخ !

وأخذ ادجار يرعاها ليل نهار ، متحملا بصبر جميع الصـعاب التى يتسبب فيهـــا مرض الجســد والعقل .. وحذره الطبيب على صحته وقوته هو ، حيث أصبح يضحى بها من أجلِ مجرد حطام .. لأن زوجته لن تعود كما كانت مرة أخرى .. لكنه لم يعرف لفرحه حدودا عندما تجاوزت كاترين مرحلة الخطر . كانت الفرحة فرحتين بعد أن تبين انها كانت حاملا .. وكان

أملنا أن يغمر الفرح قلب السيد ادجار بميلاد وريثه الذى سيؤمن أراضيه من أن يستولى عليها غريب ..

كانت أول مرة تغادر فيها حجرتها فى بداية شهر مارس ، حيث وضع السيد ادجار على وسادتها باقة من الزهور فى الصباح ، فوقعت عينها عند استيقاظها على اللون الوضاء بالبهجة فتألقت بالسرور. **وقالت :**

ـ انها بشائر زهور المرتفعات المبكرة ، انها تذكرنى بالرياح اللطيفة وشروق الشمس الدافئة والجليد المذاب . !

فقال لها زوجها :

ـ لقد ولى الجليد تماما يا عزيزتى .. كاترين ، فى الربيع الماضى كنت أتطلع شوقا للحصول عليك تحت هذا السقف . والآن أتمنى لو كنت فوق تلك التلال على بعد ميل أو ميلين ، فالهواء فى منتهى العذوبة ، أشعر أنه سيشفيك تماما !

وأخبرنى السيد بأن أشعل المدفأة فى حجرة الجلوس وأضع كرسيا فى الشمس المشرقة ٠ ثم نزل بها حيث جلست لفترة طويلة مستمتعة بالدفء ٠ وعندما حل المساء ، لم ترغب فى العودة الى الطابق العلوى ، رغم كونها متعبة جدا ، لذلك جهزنا لها حجرة أخرى فى الطابق السفلى وبدت عفية بما فيه الكفاية لتتحرك من حجرة الى أخرى ، مستندة على ذراع ادجار٠

وبعد حوالى ستة أسابيع من مغادرة ايزابيللا ، أرسلت رسالة قصيرة الى أخيها تعلن عن زواجها من هيثكليف ٠٠ وبدت الرسالة جافة وباردة ، ولكنها كانت مذيلة بسطر بالقلم الرصاص تعبر فيه عن أسفها على عملها ، ورغبتها فى الصفح ٠٠ ولكن ادجار لم يرد على رسالتها ٠ وبعد أسبوعين وصلتنى رسالة من الفتاة التعيسة ، التى احتفظت بها حتى الآن ، وهذا نصها :

« عزيزتى نيللى ٠٠٠ لقد ذهبت الليلة الماضية الى مرتفعات وذرينج ، وعلمت للمرة الأولى بمرض

كاترين · أعتقد أني لا يجب أن أكتب لها ، ولا بد أن يكون أخي غاضبا مني لأنه لم يرد على رسالتي ·

أخبرى ادجار أن قلبي عاد الى المزرعة بعد أربع وعشرين ساعة من مغادرتي ، ومع ذلك ، لا أستطيع أن أتبع قلبي ·

اني أتساءل كيف أمكنك ، عندما كنت تعيشين هنا ، أن تبقى على انسانيتك ·· هل كان هيثكليف مجنونا ·· أم هل هو شيطان ؟ ·· أرجوك أن توضحى لى ، اذا أمكنك ، بمن تزوجت !

لقد وصلنا هنا بعد غياب الشمس ، وخرج الخادم يوسف ومعه مصباح ، وهو يلقى على بنظرة قميئة ، ثم أخذ الجياد وانصرف ·· وبقى هيثكليف ليتحدث معه ، ودخلت أنا الى المطبخ حيث الأقذار والفوضى ·· انك لن تستطيعى التعرف عليه ، لقد تغير تماما منذ أن كان تحت رعايتك ·· والى جانب الموقد كان يقف طفل قذر ، خشن المظهر ، يشبه كاترين فى العينين وما حول الفم ، وقد تعرفت عليه بأنه لا بد أن يكون

هيرتون ٠٠ وحاولت أن أكسب وده ، لكنه شتمنى أولا ، ثم أطلق أحد الكلاب على ٠

خرجت من المطبخ ، ورحت أتجول فى الفناء ، وقرعت أحد الأبواب ، ففتحه لى رجل طويل رث الثياب أشعث الشعر ، كان يشبه ، هو أيضا ، عزيزتنا كاترين ٠٠ وتأكدت أنه هندلى شقيقها ، فأدخلنى وأغلق الباب ٠٠ ورأيت أنها نفس الحجرة الفسيحة التى كانت تشع بهجة واشراقا عندما زرتها منذ سنوات ٠ أما الآن فهى مغبرة لا يعتز بها أحد ٠ فسألته اذا كان يمكننى أن استدعى الخادمة لتدلنى على حجرة النوم ٠٠ لكن السيد هندلى لم يحر جوابا ، وبدا وكأنه نسى وجودى ، وبدا غريبا جدا ولم يقم بالترحيب بى حتى أننى قررت ألا أزعجه ثانية ٠

عندئذ تذكرت أنه على بعد أربعة أميال يقع البيت السعيد الذى فيه أحب الناس لدى فى الدنيا ، ومع ذلك وكأن بحرا عريضا يفرق بيننا ! وكررت سؤالى ثانية ٠

قال هندلى :

ـ ليس لدينا خدم ، عليك أن تخدمى نفسك !

كنت متعبة وبائسة فقلت والدموع تسـيل من عينى :

ـ وأين أنام اذن ؟

ـ سـيقودك يوسـف الى غرفـة هيثكليف ، ولتحسنى اغلاق بابك بالمفتاح ٠

ـ لكن لماذا يا سيدى هندلى ؟

فقال وهو يسحب من جيبه مسدسـا صـغيرا غريب الصنع مثبت فيه سكين ذو حدين :

ـ لأننى لن أتوانى عن قتل هيثكليف ، ان رأيت باب غرفته مفتوحا فى ليلة ما !

فسألته :

ـ وماذا فعل لك هيثكليف ؟ أليس من الأفضل أن تطرده من البيت ؟

فصرخ هندلى :

– كلا ! هل أخسر نقودى كلها دون فرصة استردادها ؟ هل يصبح هيرتون شحاذا ؟ .. سأستردها وسأحصل على ذهبه أيضا وعلى دمه !

انك تعرفين عادات سيدك القديم ، أنه على وشك الجنون ، وأخشى الاقتراب منه .

كانت حجرة هيثكليف مغلقة ، فذهبت لأنام على كرسى بحجرة الجلوس ، حتى عاد باخبار مرض كاترين ، واتهم أخى بأنه سبب ذلك ، وهددنى بالانتقام منى بدلا منه الى أن تسمح له الظروف بمعاقبته هو . انى بائسة .. لقد كنت حمقاء ! .. لا تقولى شيئا مما ذكرته لك لأى أحد بالمزرعة ، أرجو حضورك لرؤيتى يانيللى فى أقرب فرصة .. سأتوقع قدومك كل يوم .. فلا تخيبى رجائى ! .. ايزابيللا » ..

الفصل الرابع والعشرون

سوف أراها !

عندما انتهيت من قراءة رسالة ايزابيللا ، ذهبت الى السيد ادجار وأطلعته على أخبار أخته ورغبتها فى عفوه ، **فأجاب** :

– اذهبى لزيارتها بعد الظهر ·· وبلغيها أسفى لفراقها ، وانه فراق الى الأبد !

لقد أحزننى برود السيد ادجار بشكل كبير ، وأخذت أفكر طوال الطريق الى مرتفعات وذرينج فى تخفيف وقع رسالة ادجار ·

كان منظر القصر بائسا وهو الذى كان فى منتهى البهجة سابقا ·· وتواءمت ايزابيللا مع المظهر الذى يحيط بها من اهمال ·· فكان وجهها الفاتن شاحبا عديم التعبير ، وشعرها غير مرتب فبعضه يتدلى وبعضه يلتوى باهمال حول رأسها ، وربما لم تصلح من مظهرها منذ الليلة السابقة ·

لـم يكن هندلى موجـودا ، ولكن هيثكليف كان يجلس على المائدة · فنهض وحيانى بطريقة ودودة وقدم لى كرسيا · قد يحكم عليه من لا يعرفه بأنه جنتلمان بالمولد ، وأن زوجته من أصل أدنى ·

جـاءت ايزابيللا نحوى بلهفـة ، وهى تأمل أن تستلم رسالة من أخيها ، وكان على أن أبلغها كلمات أخيها · فارتعشت شفتاها واستدارت الى حيث كانت تجلس · وراح زوجها يستفسر عن صحة كاترين · **فقلت له :**

ـ انها تسترد صحتها الآن · ولن تعود كمـا كانت ، لكن حياتهـا أنقذت باعجوبة ·· ولقد تغـير

مظهرها وكذلك شخصيتها تماما . ويرافقها سيدى الذى سيحافظ على عاطفته نحوها على سبيل العطف والاحساس بالواجب .

فامسك هيثكليف بزمام نفسه ليبدو هادئا وقال :

ــ هل تتخيلين انى ساترك كاترين لواجب سيدك وعطفه ! .. نيللى ، يجب أن تعدينى بأن ترتبى لى موعدا لرؤياها .. قبلت أم أبيت ، سوف أراها . فما قولك ؟!

فاجبت :

ــ أقول يا سيد هيثكليف ، ان اية زيارة يتولد عنها شجار بينك وبين السيد ادجار سوف تقضى على حياتها !

ــ بمساعدتك يمكن تجنب ذلك .. ان الخوف من أنها قد تعانى من فقده يمنعنى من اقتراف عمل مشين ، وهكذا ترين الفرق بين مشاعرنا .. اذا كان

هو فى مكانى وأنا فى مكانه لما رفعت يدى ضده ، طالما ترغب هى فى مرافقتـه ، ولحظة ما ينتهى شعورهـا سأمزق قلبه اربا ، ولكن حتى ذلك الحين ، سأموت على فترات قبل أن ألمس شعرة واحدة من رأسه !

فقاطعته قائلة :

ـ ومع ذلـك ، فانت لا تعبأ بتحطيم فرحتهـا لاسترداد صحتها بازعاجها الآن ، بينما هى كادت أن تنساك ٠

ـ أوه يا نيللى ! ٠٠ تعلمين أنها لم تنسنى !٠٠ وتعلمين كما أعلم أنها فى كل مرة تفكر فى ادجار تفكر فى أنا ألف مرة ! ٠٠ لقد هيمن على مثل هذا الاحتمال عند عودتى فى الصيف الماضى ، ولكن كلماتها تجعلنى أعترف بالفكرة المفزعة ثانية ٠٠ وعندئذ ٠٠ سوف لا يكون ادجار شيئا ، ولا هندلى ، ولا أحلام الانتقام الأخرى التى طالما حلمت بها ٠٠ كلمتان فقط تمثلان مستقبلى ٠٠ الموت والجحيم ! ٠٠ لكن كاترين لها قلب عميق مثل قلبى ، ومنزلة ادجار عندها لا تزيد عن

منزلة كلبها أو جوادها ٠٠ ليس فيه ما تحبه ٠٠ وكيف لها اذن أن تحب فيه ما ليس فيه ؟!

وبعودة مفاجئة للحياة صرخت ايزابيلا قائلة :

ـ كاترين وادجار مغرمان ببعضهما كأى زوجين ! ولا أحب أن أسمع سيرة أخى بهذا الاستخفاف!

فقال هيثكليف باحتقار :

ـ انه لا يستحق الا هذا الاستخفاف !

فقلت :

ـ ان سيدتى الصغيرة تبدو حزينة لتغير ظروفها ، وقد تعودت على الحنان وعلى من يقوم بخدمتها ، فيجب أن تأتى لها بخادمة ٠٠ ومهما كان تفكيرك فى ادجار فلا يمكنك أن تشكك فى عاطفتها نحوك ، والا ما تركت أبدا كل أسباب الرفاهية والسعادة فى بيتها لتعيش معك فى هذا المكان الموحش !

فاجاب :

ـ ان الوهم ، هو الذى جعلها تتخلى عن كل شىء ، اذ أنها حسبتنى ذلك الرجل المدهش الذى قرأت عنه فيالروايات ‎٠٠ انى لا اعتبرها عاقلة ازاء فكرتها عن شخصيتى التى كونتها لنفسها ، ولكنى أعتقد أنها بدأت تعرفنى أخيرا ‎٠٠ وأنا لم أكذب عليها مطلقا ، وأول شىء رأتنى أفعله عند الخروج من المزرعة ، هو شنق كلبها الصغير ، ومع ذلك لم تبد أى اشمئزاز ‎٠٠ أرجوك يا نيللى أن تقولى لسيدك انى لم أر فى حياتى شخصا بمثل كآبة ايزابيللا ،‎٠انها تجلب العار حتى على عائلة لنتون !

فصرخت ايزابيللا :

ـ أنه يصرح بأنه تزوجنى عن عمد ليزداد قوة على ادجار ، لكنه لن ينال ذلك ! وأملى أن ينسى حذره الشيطانى ويقتلنى ! فالمتعة الوحيدة التى استطيع ان أتخيلها هى أن أموت أو أراه ميتا !

فقال هيثكليف ببرود :

ـ أرجوك يا نيللى أن تتذكرى لغتها اذا استدعوك للشهادة فى ساحة القضـــاء ! ٠٠ وانظرى جيدا الى وجهها ، انها على وشك الانهيار ٠ انك لست مسئولة عن تصرفاتك يا ايزابيللا الآن ، وأنا كزوجك المطيع للقانون يجب أن أحفظك آمنة متماسكة ٠٠ اصعدى الى غرفتك ، فلدى ما أقوله لنيللى على انفراد ٠

ودفع بها خارج الحجرة وتمتم قائلا :

ـ ليس لدى شفقة ، ليس لدى شفقة ! فكلما عانت الديدان ، رغبت فى سحقها !

ونهضت لأذهب ، فقال لى :

ـ قفى ! ٠٠ تعالى هنا يا نيللى ٠٠ يجب أن أحثك أو أجبرك على مساعدتى لرؤية كاترين ٠ لا أرغب فى أن أسبب أى ازعاج ٠ سأنبهك عند قدومى ، وعليك أن تدخلينى دون أن يلاحظنى أحد لأنفرد بها ٠

فاعترضت وجادلت ورفضت طلبه مرات عديدة ولكن هيثكليف أجبرنى أخيرا على الموافقة بان احمل رسالة منه الى سيدتى ، فاذا رغبت مقابلته ، عليها أن تحدد موعدا يكون فيها زوجها خارج البيت ·

الفصل الخامس والعشرون

اللقــــاء

وعند المســــاء ، لمحت هيثكليف يحوم حــول المزرعة ، وتجنبت الخروج ، لأنني ما زلت أحمل رسالته فى جيبى • فلم أشأ أن أعطيها لها ، لأنى لم أستطع أن أضمن مدى تأثيرها على سيدتى • ولذلك لم تصلها الا بعد مرور ثلاثة أيام •

وفى اليوم الرابع ، وكان يوم أحد وأحضرتها الى حجرتها بعد ذهاب أهل المنزل الى الكنيسة •

وجلست كاترين فى فستانها الأبيض الفضفاض عند النافذة المفتوحة كالمعتاد •• وكان شعرها الطويل

الكثيف ما زال بعضه منسدلا ببساطة فوق جبينها ورقبتها ٠٠ لقد تغير مظهرها ، ولكن عندما تكون هادئة ، كان يبدو فى التغيير جمالا غريبا ٠٠ فالوميض فى عينيها حل محل الرقة الناعمة ٠٠ وشحوب وجهها، والتعبير الغريب المنبعث عن حالتها الذهنية أضاف الى التأثير الذى تشع به ٠٠ ولكن هذه العلامات بالنسبة لى لم تكن الا علامات أكيدة بأن حتفها هو الموت العاجل٠

وكانت أجراس كنيسة جيمرتون لا زالت تدق٠٠ والتدفق المتخم لجدول الماء الصغير بالوادى يأتى بحلاوة الى الآذان ٠٠ وكان يبدو على كاترين انها كانت تنصت الى خرير المياه ٠٠ لكن عينيها كانتا مستغرقتين فى نظرات بعيدة حالمة ٠٠ !

وقلت لها بلطف :

ـ اننى أحمل لك رسالة يجب أن تقرأيها وتردى عليها بسرعة ٠ هل أفضها لك ؟!

فاجابت دون أن تغير من اتجاه نظرتها :

ـ أجل ٠

وفعلت ذلك ، أعطيتها لها لتقرأها ، فسحبت يدها بعيدا ودعتها سسقط • فأعدتها الى ركبتها ووقفت منتظرة • وأخيرا قلت لها :

– هل أقرأها لك ؟ أنها من السيد هيثكليف !

وهنا ظهر عليها الاضطراب وكأنها تحاول ان تتذكر وتصارع لترتيب أفكارها • ورفعت الرسالة وبدت وكأنها تقرأهـا ، وعندما جاءت الى الاسم فى الختام تنهدت ومع ذلك فهمت أنها لم تدرك فحواها ، وأشارت الى الاسم وثبتت عيناها على بشغف فضولى حزين • فقلت لها :

– انه يرغب فى أن يراك • من المحتمل أن يكون فى الحديقة الآن ، فاقد الصبر ليعرف ردك •

ولاحظت ، أثناء حديثى ، أن الكلب الكبير الراقد على النجيل فى الشمس يحرك أذنيـه ثم يسحبهمـا للخلف برقة معبرا بحركة من ذيله عن أن شـخصا لا يعتبره غريبا يقترب منه ، وانحنت كاترين الى الأمام وانصتت حابسة أنفاسها ••

وفى الدقيقة التاليـــة سمعنا وقع خطوات فى الصالة ، وبشغف لا يوصف وجهت كاترين عينيها نحو مدخل حجرتها ، وقبل أن أستطيع الوصول الى الباب ، كان هيثكليف قد عثر عليه ، وفى لحظة كان بجوارها ، وأخذها بين ذراعيه !

ولم يتكلم ولم يتركهـا من بين ذراعيـه لعدة دقائق • ورأيته يحتمل بالكاد حالة شديدة من اليأس عندما نظر الى وجهها ، وشعر من اللحظة التى رآها فيها بأنه لا أمل فى شفائها •• لقد تقرر قدرها ، كانت متأكدة أنها تموت •• **وكانت أول جملة يتفوه بها :**

ـ آه يا كاتى •• آه يا حياتى ! كيف أتحمـــل ذلك ؟

ونظر اليهـا بشـغف حتى فـكرت أن دمـوعه ستسـقط من عينيه ، لكنهما احترقتا بالألم ، ولم تذوبا •

فقالت كاترين وهى تستلقى معيدة نظرته باخرى حانقة مباغتة :

ـ ما العمل ؟ انت وادجار قـد حطمتما قـلبى يا هيثكليف ! والآن ياتى كلاكما مشفقا على وكأنكما من يحتاج المواساة ! لن أشفق عليكما ٠٠ لست أنا ٠ لقد قتلتمانى ٠٠ كم من السنين ستعيشها بعد ذهابى ؟!

وكان هيثكليف قد ركع على احـدى ركبتيه ، وحاول أن ينهض ، لكنهـا أمسكت بشـعره وأبقته راكعا ٠ واستمرت قائلة فى مرارة :

ـ أود أن أقـدر على التعلق بك ، حتى نموت كلانا آ كان لا يجب أن أعبأ بمعاناتك لماذا يجب الا تعاني ؟ اننى أعاني ! هل ستنساني ؟ هل ستكون سعيدا بعد أن أصبح تحت التراب ؟

فصرخ محررا راسه من قبضتها :

ـ لا تمعنى فى تعـذيبى حتى أجن مثلك ! هل يتلبسك الشيطان لتتكلمى هكذا وانت تموتين ؟ ٠٠ هل تدركين أن كل هـذه الكلمـات ستحترق داخل ذاكرتى ؟ أنت تعرفين أنى لم أتسبب فى موتك ٠٠ وتعرفين يا كاترين أننى أستطيع أن أنساك فورا ، لو

نسيت وجودى ! أليس كافيا لأنانيتك الملعونة أنه بينما تكونين أنت فى سلام سأكون أنا يالوعتى فى عذاب مقيم ؟!

وتمتمت كاترين عائدة للاحساس بالضعف من قبل ضربات عنيفة غير منتظمة من قلبها :

ـ سوف لا أكون فى سلام !

ولم تزد القول حتى مرت الأزمة ، ثم استمرت قائلة بشكل اكثر عطفا :

ـ انى لا أود لك عذابا أكثر مما بى ، يا هيثكليف ٠٠ انى أود فقط ألا نفترق أبدا ٠٠ واذا تسببت ذكرى أية كلمة من كلماتى فى ايلامك فى المستقبل فاعرف انى سأشعر بنفس الألم وأنا تحت التراب ٠٠ ولأجل خاطرى اغفر لى ! ٠٠ وتعال بالقرب منى واركع بجانبى ثانية ! انك لم تسىء الى فى حياتك مطلقا !

الفصل السادس والعشرون

لقد حطمت قلبك وقلبى !

ذهب هيثكليف الى مؤخرة كرسيهـا ، وانحنى عليها ولكنه لم يدعها ترى وجهه الذى كان فى شحوب الموتى ، والتفتت لتنظر اليه ، ولكنه لم يسمح بذلك ، واستدار بسرعة ومشى الى المدفأة حيث وقف صامتا وظهره نحونا ، فنظرت كاترين نحوه فى ريبة **ثم وجهت كلامها لى بصوت جريح :**

– ترين يا نيللى ، انه لن يستسلم للحظة واحدة· وهكذا أتلقى الحب · حسن ، لا بأس · انـه ليس بهيثكليف الذى يخصنى ·· اننى أحب من يخصنى ولن أكف عن حبه · ترى ألن يكون بالقرب منى ؟!

واستمرت تقول لنفسها :

ـ ظننت انه يود ذلك · هيثكليف ·· يا غالى ·· تعالى الى !!

وفى شغفها نهضت وتساندت على ذراع الكرسى ، والتفت اليها تلبية لهذا الطلب الجاد الذى كان باديا عليها فى يأس مطلق · وبقيا للحظة بعيدين عن بعضهما ثم لم أرهما كيف التقيا ·· اذ بدت كاترين وكأنها تقفز وأمسك هو بها فى عناق وكأنه لن يدعها تفلت منه أبدا · واعتقدت أن سيدتى قد أصيبت باغماء ، ولكن عندما اقتربت لأتحقق التفت الى وضمها اليه أكثر وأكثر ·· لذلك انتحيت جانبا ، لا أدرى ما أفعل ·

وخففت عنى بعض الشىء حركة من كاترين حين أحاطت عنقه بيدها ووضعت خدها على خده ·· وقال هيثكليف :

ـ تعلمين كيف كنت قاسية ومضللة ! لماذا هزئت بى ؟ لماذا كنت لاتسمعين لقبلك يا كاتى ؟

.. لم أحصل منك على كلمة سلوى واحدة .. انك تستحقين هذا ! .. لقد قتلت نفسك . أجل ، يمكنك أن تقبليني وتبكين وتجبريني على أن أفعل نفس الشيء .. انه عقابك . لقد أحببتني .. اذن فبأي حق تتركينني ؟! .. لأن البؤس والموت لم يستطيعا أن يفرقا بيننا ، وأنت بمحض ارادتك فرقت بيننا ! .. أنا لم أحطم قلبك .. لقد حطمته أنت وحطمت قلبي معه ! .. أن الجزء السيء مني هو الذي يبدو قويا أمامك .. هل أرغب في العيش ؟! هل ترغبين في العيش وروحك في القبر ؟

فقالت كاترين باكية :

– دعني وحدي ، ان كنت قد أخطأت ، فهأنذا أموت جزاء فعلي .. لقد تركتني أنت أيضا ، ولكني أسامحك ، فسامحني !

– أنه صعب ، ولكني أسامحك برغم ما فعلته بي ، فأنا أحب قاتلتي ، ولكن قاتلك ! كيف يمكنني أن أسامحه ؟

مرت لحظات والصمت مخيم عليهما ، وقد اختفى وجه كل منهما فى وجه الآخر ، وامتزجت دموعهما سويا ، وبدأت أشعر بالقلق فالوقت يمضى بسرعة ·· واستطعت أن أرى جماهير المصلين وهى تخرج من الكنيسة ، فقلت :

ـ لقد انتهت الصلاة ، وسيحضر سيدى من الكنيسة بعد نصف ساعة !

فزمجر هيثكليف بلعنة ، وضم كاترين اليه أكثر ، ولم تحرك هى ساكنا ··

وفى الحال شاهدت مجموعة من الخدم قادمين فى الطريق ، ثم فتح ادجار البوابة ومشى مستمتعا بشمس ما بعد الظهر · فصرخت قائلة :

ـ ها قد وصل السيد لنتون !

فقال هيثكليف :

ـ يجب أن أذهب يا كاتى ، ولكننى سأراك ثانية قبل ان تنامى · اننى سأبقى قريبا من نافذتك ·

فاجابت ممسكة به على قدر ما سمحت به قوتها :

ـ لا يجب أن تذهب !

فرجاها قائلا :

ـ ساعة واحدة فقط !

فاجابت :

ـ ولا دقيقة واحدة ٠

ـ لا بد أن أرحل ، فادجار سيأتى فى الحال !

وحاول النهوض ولكنها تعلقت به بعناد جنونى وهى تقول :

ـ لا ! لا ترحل ٠ انها المرة الأخيرة !

فتمتم هيثكليف بلعنـة على ادجـار وغاص فى جلسته ثانية ٠

ـ سأبقى يا حبيبتى ، فاهدئى ! واذا قتلنى ، فسأموت والرضا مرسوم على شفتى ٠

وسمعت سيدى صاعدا السلم • فصرخت :

ـ انها لا تدرى ما تقول ! هل ستحطمها لأنها لا تعى مصلحتها ؟ انهض ! كفانا ما نحن فيه •

وأسرع السيد ادجار فى خطواته عند سماع كلامنا • ورأيت ذراعى كاترين قد سقطتا ورأسها تدلى • فقلت لنفسى :

ـ هل غابت عن الوعى ، أم ماتت ؟!

وهجم ادجار على ضيفه غير المدعو شاحبا من الدهشة والغضب ، ولكن الآخر استوقفه فى الحال واضعا جسدها الهامد بين ذراعيه قائلا :

ـ ان لم تكن شيطانا فساعدها أولا •• ومن ثم تحدث معى •

ومشى الى حجرة الجلوس ، وناداني ادجار واستعادت كاترين وعيها بعد أن بذلنا أقصى جهدنا ، رغم أنها لم تتعرف على أى واحد منا ، ونسى ادجار فى غمرة قلقه صديقها الذى يكرهه • فطلبت من هيثكليف

فى أول فرصة أن يغادر المنزل قائلة أنها فى حالة أفضل وأننى سأوافيه بأخبارها فى الصباح التالى ، **فقال :**

– سأنتظر فى الحديقة يا نيللى ، وان لم تف بكلمتك فسأقوم بزيارة أخرى سواء كان ادجار موجودا أم لا ٠٠ !

الفصل السابع والعشرون

فلا تنعمى بالراحة !

فى الساعة الثانية عشرة مساء ولدت كاترين الثانية ٠٠ طفلة هزيلة استمر حملها سبعة شهور فقط ٠٠ وبعد ساعتين من ولادتها توفيت الأم قبل ان تستعيد وعيها لتتفقد هيثكليف أو لتتعرف على ادجار ٠ كان من المؤلم رؤية حزن زوجها الذى زاده احساسه بأن زوجته قد رحلت دون أن تنجب له وريثا ذكرا ٠٠

وعند طلوع الشمس خرجت لأبحث عن هيثكليف وأنا خائفة فى نفس الوقت ٠ كان متكئا على جذع شجرة ، خالعا قبعته وكان شعره مبللا بندى الصباح ٠ فقال :

ـ لقد ماتت ، انني لم أنتظرك حتى أعلم ذلك ٠ ابعدى منديلك ، انهـــا ليست بحاجة لدموعـك ٠ كيف ٠٠ ؟!

وقاوم حزنه رافضـا مواسـاتى بحملقة رهيبة **واكمل سؤاله :**

ـ كيف ماتت ؟

فقلت فى نفسى :

ـ يا تعيس يا مســـكين ٠٠ ان لديـك قلبـــا وأحاسيس كالآخرين !

ثم اجبته بصوت مسموع :

ـ ماتت بهدوء كالحمل الوديع !

ـ و ٠٠٠ هل ذكرتنى ؟

ـ انها لم تستعد وعيها ولم تتعرف على أحد منذ أن غادرتها أنت ٠٠ كانت ترقد والابتســامة الحلوة

مرتسـمة على شفتيها ، وكانت أفكارها الأخيرة تهيم عائدة بها لأيام طفولتها الجميلة ٠

فصرخ فى عنف مخيف :

ـ فلترقب العذاب ! لماذا هى كاذبة حتى النهاية ! سأدعو دعاء واحدا ٠٠ زأكرره حتى يتيبس لسانى ! يا كاترين ايرنشو لا تنعمى بالراحة طالما أنا حى ؟ لقد قلت اننى قتلتك فلتتلبسنى روحك اذن ! كونى معى ولازمينى دائما اتخذى أى شكل ـ ادفعى بى الى الجنون ٠٠ فقط لا تتركينى الى حيث لا أستطيع أن أجدك ! يا الهى ، أنى لا أستطيع أن أحيا بدون حياتى !

وضرب رأسه بجذع الشجرة لا كانسان بـل كحيوان ضار ٠ ولحظة ما استعاد وعيه ولاحظنى ٠٠ وأمرنى بأن أتركه ، فأطعته ٠

تم تحديد موعد جنازة كاترين يوم الجمعة التالى لوفاتها ، وظل تابوتها مفتوحا فى الصـالة الكبرى

بالطابق السفلى • وقضى ادجار أيامه ولياليه هناك ، حارسا لا ينام ، بينما هيتكليف ، كما أعلم ، يرقب بلا نوم أيضا فى الخارج •

وفى مساء يوم الثلاثاء ، عندما ذهب ادجـــار ليرتاح ساعة أو ساعتين من اثر ارهاق المراقبة ، قمت بفتح احدى النوافذ لأترك المجال لهيتكليف ليلقى نظرة الوداع الأخيرة !

وهذا ما فعله فى سكون ، عرفت ذلك ، عنـــدما لاحظت ، فيما بعد ، خصلة شعر أشقر على الأرض منزوعة من العلبة الذهبية الصغيرة التى على شـــكل قلب المعلقة بسلسلة حول رقبة كاترين • كانت من شعر زوجها ، وقام هيثكليف بالقاءها خارج العلبـة واضعا محلها خصلة من شعره الأســــود ، فلويت الخصلتين ووضعتهما سويا داخل العلبة •

ودعونا السيد هندلى للاشــتراك فى جنــازة شقيقته ، لكنه لم يحضر ، أما ايزابيلا فلم ندعها •

وتم دفن كاترين ، والذى أدهش سكان القرية، أنها لم تدفن داخل الكنيسة مع عائلة لنتـــون ولا خارجها مع أقاربها ٠ بل حفروا قبرها على رابيـــة خضراء منحدرة عند منعطف فنـاء الكنيسة حيث كان الجدار منخفضا لدرجة أن النباتات البرية تســلقت عليه من كل ناحية ٠٠

الفصل الثامن والعشرون

هندلى يخطط للانتقام

كان يوم الجمعة هذا آخر يوم للطقس الجميل الذى استمر شهرا ، وفى المساء تغير الطقس ، وجاءت الرياح بالمطر أولا ثم بالجليد وبدا وكأن الشتاء قد عاد .. بقى سيدى فى غرفته طوال اليوم التالى . وكنت فى حجرة الجلوس المنعزلة والطفلة الصغيرة تبكى على ركبتى ، عندما فتح الباب فجأة ، ودخل أحدهم ، وكانت ايزابيللا هيثكليف ، لاهثة ضاحكة.. وتقدمت نحو المدفأة وقالت :

- لقد ركضت الطريق كله من مرتفعات وذرينج

الى هنا ٠ لا تنزعجى ! ٠٠ سأشرح لك فيما بعد ، أرجوك فقط أن تطلبى عربة توصلنى الى جيمرتون وبلغى احدى الخدم أن تحضر لى بعض ملابسى ٠

انسدل شعرها على كتفيها مبتلا بالجليد ومياه المطر ٠ كانت ترتدى فستانها الحريرى الذى اعتادت أن ترتديه وهى بنت ، والذى يتناسب مع سنها لا وضعها كسيدة متزوجة ٠ وكان الماء يتساقط منه ، ولمحت جرحا عميقا أسفل اذنها وكدمات فى وجهها ٠

وعندما قمت بتضميد جرحها وساعدتها فى استبدال ملابسها وأجلستها بجوار المدفأة مع فنجان الشاى الذى أعددته لها ، بدأت تتكلم ، ولكنها رجتنى أولا أن أبعد ابنة كاترين ، وقالت :

ـ لا أحب أن أراها ! لا تظنى اننى اكره كاترين، لأنى اتصرف كالحمقاء منذ دخولى ٠٠ لقد بكيت عليها بمرارة ، لكنى لم أرغب فى مواساة هيثكليف ٠٠

ثم خلعت خاتم الزواج من اصبعها ، والقت به فى النار بطريقة طفولية وهى تقول :

ـ ان هذا هو آخر ما يربطنى به ٠٠ ان الضرورة اجبرتنى على العودة الى هنا ، فلا ملجأ لى غيره ، لكننى لن أمكث طويلا اذ أن هيثكليف لاشك سيأتى للبحث عنى ، ليضايق ادجار ٠٠ بالاضافة الى أن ادجار لم يكن عطوفا ، أليس كذلك؟ اننى لم آت لاطلب المساعدة ولن أجلب له مزيدا من المشاكل ٠٠ أن هيثكليف يكره رؤيتى ، وانى على يقين أنه لن يلاحقنى عبر انجلترا اذا تمكنت من الهروب ، لذلك يجب أن أذهب من هنا حالا !

فسألتها ما الذى دفع بها أن تأتى هاربة من مرتفعات وذرينج بهذا الشكل ٠

فاجابت :

كنت مضطرة لذلك ، لاننى نجحت فى اثارة غضبه فوق طاقة حذره ، فمنذ الأحد الماضى لم يتناول أية وجبة طعام معنا ٠ وكان يخرج كل ليلة ويعود للبيت فى الصباح الباكر ، ويحبس نفسه فى غرفته، ورغم أن الأسى على كاترين يعتصرنى ، الا أننى استمتعت

بالاسبوع كله كعطلة ، فاستطعت أن اتحرك بحرية فى المنزل ، وأجلس فى هدوء وطمأنينة بجانب المدفأة ٠

وليلة البارحة بقيت اقرأ الى ساعة متأخرة ، وهندلى الذى لم يكن مخمورا كعادته يجلس قبالتى ورأسه بين يديه ٠ وهو أهدا حاليا عما قبل ، اذا لم يضايقه أحد ، وعكر هذا السكون صوت هيثكليف عند باب المطبخ ، اعتقد أنه عاد مبكرا بسبب سوء حالة الطقس ، وكان الباب مقفلا ، فاستدار هندلى نحوى وقال :

ـ سأبقيه فى الخارج لمدة خمس دقائق ، فلدينا أنت وأنا حساب نسويه مع هذا الرجل ٠ هل أنت هشة مثل شقيقك ؟ هل ستقاسين حتى النهاية دون ان تنتقمى ؟!

فاجبته :

ـ لقد تعبت ، وسأكون سعيدة بالانتقام منه ، لكن العنف والغدر يصيب من يستخدمهما ٠

ـ سأطلب منك ألا تفعلى شيئا ، مجرد أن تجلسى هادئة صامتة . أعدينى أن تحبسى لسانك فى فمك ، وقبل أن تدق هذه الساعة ـ انها الواحدة الا ثلاث دقائق ـ ستصبحين حرة !

وسحب من داخل سترته المسدس المثبت فيه السكين ذو الحدين ، الذى رأيته من قبل ، وحاول اطفاء الشمعة ، فمنعته وامسكت بذراعه وقلت :

ـ سأصرخ ، لا تحاول أن تؤذيه يا هندلى ، والزم الهدوء !

ـ لقد عقدت العزم ، وحان الوقت لأضع حدا لتصرفاته !

لم يكن من المجدى أن أقاومه ، كل ما أستطعت عمله هو أننى هرعت لأفتح النافذة ، وصرخت وأنا أشعر بشىء من الابتهاج :

ـ من الأفضل أن تجد لك مكانا آخر تأوى اليه ، فالسيد هندلى ينوى قتلك !

ولكن هيثكليف أمرني أن أفتح الباب وشتمني متوعدا ، فأغلقت النافذة وعدت مكاني بجانب المدفأة. فشتمني هندلي أيضا قائلا انني لازلت أحب الشيطان!

وضرب هيثكليف النافذة ، فكسرها وأدخل وجهه الأسمر الغاضب من بين القضبان الحديدية ، ولكنه لم يتمكن من الدخول ، فابتسمت وأنا اعتقد أني في مأمن . وعاد فأمرني قائلا :

ـ ايزابيللا ، افتحي الباب !

ـ لايمكنني أن أرتكب جريمة قتل . ان هندلي ينتظرك بمسدس وسكين في يده ، وحبك المسكين لايتحمل رذاذ الجليد ، هيثكليف .. لو كنت مكانك، لذهبت وتمددت فوق قبرها لأموت ككلب وفي !

ووقفت بلا حراك من الرعب نتيجة لكلماتي المهينة ، عندما انقض هيثكليف وخطف السلاح من هندلي ، فانطلق المسدس وارتد السكين فأصاب معصم حامله وانتزعه هيثكليف بعنف .. !!

الفصل التاسع والعشرون

ايزابليلا تهرب

وقع هندلى على الأرض فاقد الوعى والدم يسيل من جرح بالغ بذراعه ٠ وركله هيثكليف برجله وأمسك بى باحدى يديه يمنعنى من احضار يوسف ٠٠ وفى النهاية سحب جسده الخائر الذى لاحراك فيه ، وأرقده على احدى المقاعد وراح يضمد له جرحه بخشونة قاسية ، وعندئذ انتهزت الفرصة وذهبت أبحث عن الخادم العجوز ٠ **وصاح هيثكليف فى يوسف الذى جاء مسرعا :**

ـ ان سيدك مجنون ، واذا ظل حيا شهرا

آخر فسأوصي بوضعه فى مستشفى المجانين · نظف هذا ··

وضرب يوسف على ركبتيه اللتين كانتـــا فى وسط الدم ، **واستدار الى وقال :**

ـ وانت أيضا ستقومين بالمساعدة · أتقفين الى جانبه ضدى ·· أهكذا ؟

وهزنى بعنف · وأخيرا ، عاد هندلى ه ، وأخذ هيثكليف يلقى عليـــه اللوم لتعاطيه مـــر ونصحه أن يذهب الى فراشه ليستريح ·

وفى الصباح ، عندما نزلت الى الطابق السفلى وجدت هندلى جالسا بجانب المدفأة وعلامات المرض بادية عليه ، وعدوه يبدو عليه نفس الشىء تقريبـــا متكئا على المدخنة ·· لم ينظر هيثكليف نحـوى ، كانت عيناه متعبتين من قلة النوم ومن البكاء وكانت شفتاه مضمومتين على تعبير حزن لايمكن أن يوصف ·· لو كان شخصا غيره لغطيت وجهى عند مشاهدة

هذا الحزن ، أما فى حالته هو ، فلقد شعرت بالغبطة، اذ لا أريد أن أفتقد هذه الفرصة وهو يقاسى ألما ٠

أراد هندلى بعض الماء ، فناولته كوبا وسألتـه عن حاله ، فأجاب :

– لست مريضا كما أرغب ، لكن بالاضـافة الى ذراعى ، فكل جزء من جسمى يؤلمنى ٠

– لقد ركلك عدوك ليلة أمس وألقى بك على الأرض ، ألم يكفه قتله لشقيقتك ؟!

ثم واصلت حديثى قائلة بصوت أعلى :

– ففى المزرعـة ، الجميع يدركـون بأنه لولا السـيد هيثكليف لكانت كاترين مازالت على قيـد الحياة !

أثارت كلماتى انتبـاه هيثكليف وراح يبكى وأخذت أضحك ، ثم قال لى :

– اغربى عن وجهى !

فواصلت حديثى قائلة :

ـ لو أن كاترين المسكينـة وضعت ثقتها بك وقبلت أن تنزل درجة وتتزوجك ، لوصلت حالتهـا كحالة أخيهـا ، وما كانت تحملت تصرفك المخزى بهدوء !

وهنا قام هيثكليف بحركة فجائيـة ، والتقط سكين طعام من على المائدة ، والقى بهـا على رأسى ، فأصابتنى أسفل أذنى ٠٠ وأوقفت الكلمات التى كنت على وشك أن اتفوه بها ٠ فقفزت نحو الباب ٠ وكان آخر منظر له فى مخيلتى هو اندفاعه الغاضب ليلحق بى ، وهندلى يمنعه ، ثم وقوعهما سـويا على الأرض ٠٠ وركضت عبر المطبخ متعثرة فى هيرتون ثم هربت هابطة الطريق المنحدر ومنه عبر المستنقعات متخطية الضفاف شاقة طريقى بصعوبة بالغة بين برك المـاء قاصدة المزرعة ٠٠ الملجأ المبارك ! ٠٠ وياليتنى أعيش عمرى كله هنا فى عذاب ، عن أن أبيت تحت سقف مرتفعات وذرينج ليلة واحدة مرة أخرى ٠

وأنهت ايزابيـــلا قصتها وتناولت فنجانا من الشاى ، ثم نهضت دون أن تعر اقناعى ببقائها ساعة أخرى أى انتباه ، وصعدت على كرسى وقبلت صورة لادجار وصورة لكاترين كانتا معلقتين على الحائط ، ثم فعلت معى نفسى الشىء ، ثم نزلت الى العربة ·

وغادرت ايزابيللا المزرعة الى غير عودة ، ولكن عندما استقرت الأمور ، أخذت تتبادل الرسائل مع أخيها ، واعتقد أنها سكنت فى الجنوب قرب لندن · وبعد بضع شهور وضعت هناك طفلا أطلقت عليه اسم لنتون ، وكان طفلا ضعيفا متذمرا منذ ولادته ·

وقابلنى هيثكليف ذات يوم بالقرية وسألنى عن مكان اقامتها ، ورفضت أن أخبره ، ولكنه توصـــل ، عن طريق بعض الخدم ، الى مكان اقامتها ، والى العلم بولادة الطفل · وتركها فى حالها ، رغم استفساره دائما عن حال الطفل ·· **وكان يقول :**

ـ سأحصل عليه وقتما أريد !

ولحسن الحظ ، توفيت الأم قبـــل أن يأتى هذا الوقت ··

الفصل الثلاثون

هيثكليف سيدا حقا

أما سيدى ادجار فلقد تسبب الحزن ، وكراهيته فى الذهاب الى أى مكان قد يقابل فيه هيثكليف ، الى أن يعيش حياة منعزلة ٠ وتفادى الذهاب الى القرية حتى فى المناسبات ، وبقى لايفارق حدود أرضه الا ليتمشى بنفسه قرب المستنقعات وليزور قبر زوجته ٠ ومع ذلك ، فالزمن تكفل بتضميد الجراح بمساعدة ابنته الصغيرة ، التى غدت مليكة قلبه ، والتى كان اسمها كاترين ولكنه لم ينادها مطلقا الا بكاتى ، ليميز بينها وبين أمها ٠

أما هندلى ، فنهايته كانت كما توقعنا ، فلقد

توفى بعد ستة أشهر من وفاة شقيقته ، ولم أصدق انه كان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره فقط !

وطلبت من السيد ادجار أن يسمح لى بالذهاب الى مرتفعات وذرينج لأساعد فى الواجبـــات الأخيرة تجاه المتوفى ، فلم يوافق ، فحدثته عن حـــالة هندلى الذى بلا صديق وقلت أن لسيدى القديم على حق مثله تماما ، بالاضافة الى أنى ذكرته بأن الطفل هـــيرتون هو ابن أخ زوجته وعليه أن يقوم بدور الوصى عليه ، وأن يستوضح عما بقى من ممتلكات شقيق زوجته ٠ فطلب منى أن أتحدث مع الســـيد جرين المحامى ، ويسمح لى أخيرا بالذهاب ٠

كان السيد جرين محاميا لهندلى أيضا ، وذهبت للقرية لزيارته وطلبت منه أن يأتى معى ، فهز رأسه ونصحنى أن نترك لهيثكليف الأمـر ٠٠ وقال اذا عرفت الحقيقة لوجدت أن حالة هيرتون تفوق حـــالة شحاذ ٠ **وقال :**

ـ لقـــد توفى أبـوه مديونا وجميع ممتلكاته

مرهونة ، والفرصة الوحيدة للوريث الطبيعى هى فى تهيئة الجو له فى استرحـام قلب مالك الرهن حتى يشعر بالرغبة فى التعامل معه بشكل كريم ٠

وعندما وصلت المرتفعـات أبدى يوسف فرحه لرؤيتى ، وقـال هيثكليف أنه لايعتبر حضــــورى ضروريا ٠ ولكن طالما اننى حضرت فعلى أن أبقى وأرتب للجنازة اذا رغبت ٠ **وقال :**

ــ لقد أغلق ، الأحمق ، أبواب القصر بالأمس ليمنعنى من الدخول ، وأمضى ليلته وهو يعب الخمر حتى الموت ٠ وفى الصباح تمكنــا يوسف وأنا من الدخول ووجدناه قد فارق الحياة ولا أمل فى انقاذه ٠

وأصررت على أن تـكون الجنـــازة محترمة ٠ وتركنى هيثكليف أفعل ما أريد لكنه ذكـرنى محذرا بأن المال الذى سيصرف على كل شىء هو من جيبـــه الخاص ٠ وكان سلوكه جامدا لامبال طوال الوقت ، ولا يبدو عليه الفـــرح ولا الأسى ، ولكنى لاحظت ما يشبه البهجة بادية على وجهه ٠

وعندما كان على وشك أن يسير وراء التابوت عند خروجه من المنزل ، رفـع بهيرتون سيء الحظ ووضعه على المائدة وتمتم في متعة غريبة :

ـ والآن أنت ولدى ، ياطفلى الجميل ! وسنرى، هل ستنمو هذه الشجرة ملتوية كالأخرى اذا كانت تحت رحمة نفس الرياح !

وفرح الطفل البرىء ولامس خده بولع ، ولكنى أدركت معنى كلماته ، فقلت :

ـ ساصطحب الطفـل معى الى مزرعـة تراش كروس ٠

ـ هل طلب منك لنتون ذلك ؟

ـ بالطبع ٠٠ لقد أمرنى باصطحابه ٠

ـ حسن ، أخبرى سـيدك بأننى أحب أن أجرب مهارتى فى تربية طفل ما ، لذا لوحـاول أن ينتزع منى هذا ، فعلى أن أستعيض بابنتى مكانه ٠

كان هذا التهديد ، بطفلة ايزابيللا كافيا بتقييد أيدينا . وبعد أن كان ادجار لنتون مهتما بعض الشيء فى البداية ، فلم يبد أى استعداد للتدخل .

وأصبح الضيف الآن سيد مرتفعات وذرينج . كان مركزه قويا وقدم للمحامى الاثباتات الكاملة بأن هنـــدلى قد رهن له كل شبر من الأرض التى كان يملكها للحصول على المال لارضـــاء غرامة الجنونى للمقامرة .

وبهذه الطريقة ، أصبح هيرتون ، الذى بدلا من أن يكون السيد الأول فى المنطقة ، فى حالة استسلام ورضوخ تام لعدو والده ، ويعيش فى قصره كخادم بلا أجر ، عاجزا عن مساعدة نفسه ، لأنه بلا صديق ولأنه يجهل كونه مظلوما .

الجزء الثانى

كاترين الثانية
أو
شجرة الانتقام تنمو

(١٧٨٤ - ١٨٠١)

ترويها السيدة ايلين (نيللى) دين

الفصل الحادى والثلاثون

كاتى تغادر القصر

مرت اثنتا عشرة سنة كانت من أسعد أيام حياتى· وكان اهتمامى الأكبر هو كاتى الصغيرة التى مرت بمشاكل الطفولة العادية بسلام . واستطاعت المشى والكلام بطريقتها الخاصة قبل ازدهار النباتات البرية فى الصيف الثانى على مقبرة أمها · كانت الشىء الساحر الوحيد الذى أضاء هذا البيت الحزين ·

وكان الجمال الحقيقى فى وجهها مع عيون عائلة ايرنشو السوداء وبياض بشرة عائلة لنتون وشعرهم الأشقر ، وكانت روحها مرحة وقلبها رقيقا محبا ·· طبعا كان لها عيوبها ، فهى مدلله كأية طفلة تريد أن تفعل ما تريد · ولقد تولى أبوها تربيتها ولم يعاملها الا أطيب معاملة · وحب الاستطلاع والذكاء اللماح جعلا منها تلميذة نجيبة ··

ولم تغادر بمفردها قط ما وراء حديقة القصر حتى وصلت سن الثالثة عشرة ·· وكان والدها يصطحبها فى بعض المناسبات لنزهة بسيطة بالمنطقة ، لكنها لم تذهب الى القرية مطلقا والمبنى الوحيد الذى دخلته غير بيتها هو الكنيسة · أما بالنسبة لمرتفعات وذرينج وهيثلكيف ، فلم تكن على علم بهما ·

ورغم أنها كانت قنوعة بحياتها المستكينة ، الا أنها كانت ترنو أحيانا من نافذتها بالطابق العلوى **وتقول :**

– متى يمكننى أن أسير فوق تلك التلال يانيللى ؟ كيف تبدو هذه الصخور عن قرب ؟!

ولقد أخبرتها احدى الخادمات عن الكهف المدهش فى هذه الصخور . فاخذت تستعطف أباها لتذهب الى هناك ، ولقد وعدها بذلك عندما تكبر ٠ ولكن الآنسة كاتى كانت تقيس عمرها بالشهور لا بالسنين ، لذلك كانت تكرر طلبها هذا باستمرار ٠٠ وكان الطريق الى هذه الصخور يمر بجوار مرتفعات وذرينج ، ولم يكن ادجار يحتمل أن يمر أمام هذا المكان ، لذلك استمر فى الرفض والتسويف ٠٠

كانت عائلة لنتون رقيقة بطبيعة الحال ٠ لقد عاشت ايزابيللا اثنتا عشرة سنة فقط بعد تركها لزوجها ، وقد أرسلت عند مرضها الأخير الى ادجار تستعطفه أن يحضر اليها لتودعه ولتسلمه ابنها ليبقى معه فى أمان ٠ وكان أملها أن يعيش الولد معه حيث أن الأب لايبدى أى اهتمام ٠

ورغم أن سيدى لم يكن يحب مغادرة البيت ، الا أنه لم يتردد للحظة ، وسافر فى الحال تاركا كاتى

فى رعايتى الخاصة ، بعد أن أمرنى أن لا أتركهـــا تخرج من القصر حتى معى ٠

تغيب ادجار عن البيت ثلاثة أسابيع ٠ وجلست سـيدتى الصغيرة فى الأيـام الأولى فى احدى أركان المكتبة ، حزينة لا تقرأ ولا تلعب ٠٠ وتلى ذلك فترة قلق ٠ ولما كنت لا أستطيع أن أظل معها لأسليهـا ، فقد اعتمدت على السماح لهـا بركوب جوادها الصغير حول الحديقة ، وعند عودتهـا كنت أستمع بصبر لقصة مغامراتها الحقيقية والخيالية ٠

ولم أكن أخشى عليها من مغادرة المزرعة حيث أن الأبواب الخارجيـة مغلقة دائمـا ، وحتى لو كانت مفتوحة فهى لن تجرؤ أن تخـرج بمفردها ٠ وكنت مخطئة فى اعتقادى هذا ٠

وذات يوم جاءتنى كاثى فى الثامنــة صباحا وقالت أنها اليوم تاجر عربى سوف يعبر الصحراء ، ويجب أن أعطيها طعـاما وفيرا لها ولحيواناتهـا (جوادها وكلابها الثلاثة) ، وركبت حاملة سلتهـا

التي أعطيتها لها ، وأخذت تضحك عندما طلبت منها الا تتأخــــر ٠

ولم تظهر البنت الشقية على موعـد تنـــاول الشاى ٠ وعاد مسافر واحد ، الا وهو الكلب العجوز، ولكن لا أثر لكاتى ولا لجوادها ، فأرســـلت الخدم ليبحثوا عنها فى جميع الاتجاهات ٠ وأخيرا خرجت بنفسى ٠

فالتقيت بأحد العمـــال منهمكا فى تشييد أحد الأسوار بالقرب من المزرعة ٠ فسألتــه ان كان قد رأى سيدتنا الصغيرة ، فأجابنى :

ـ لقد رأيتهـــا فى الصباح وهى تقفز بجوادها من فوق السياج ٠٠ من هنا ٠٠ ثم غابت عن نظرى٠٠

الفصل الثاني والثلاثون

الزيارة الأولى للمرتفعات

جال فورا فى خاطـرى أن كاتى لابـد أن تكون قد ذهبت الى الصخور ، فنفذت من ثغرة كان يقوم الرجل باصلاحها ، ورحت أسير ميلا بعد ميل الى أن أصبحت قريبة من المرتفعات ، ولكننى لم أعثر لها على أثر ٠٠ كانت الصـــخور تقع على بعد ميـــل ونصف خلف المرتفعات ، وبدأت أخشى حلول الظلام قبل الوصول اليها ، **وبدات أفكر :**

ـ ترى هل انزلقت وهى تتسلق فأصابها مكروه ؟

كان قلقى عليها مؤلما ، وسررت جدا عندما رأيت، وأنا أركض مارة ببيت المزرعة بمرتفعـــات وذرينج ،

كلبنا الشرس راقدا تحت احدى النوافذ بأذن دامية ، ففتحت البوابة وقرعت الباب بعنف ، فأجابت امرأة ، عرفتها ، حيث كانت تعمل خادمة بالمرتفعات منذ وفاة هندلى :

ـ آه ! لابد انك جئت تبحثين عن الآنسة الصغيرة ٠٠ لاتخافى ، انها هنا فى أمان ٠ الحمد لله ظننتك السيد ٠

فسألتها :

ـ أليس موجودا بالبيت ، اذن ؟

ـ كلا ، كلا ، أنه لايعود فى مثل هذا الوقت ، ربما بعد ساعة أو أكثر ٠٠ ادخلى واستريحى قليلا ٠

دخلت ، ووجدت حملى الوديع كاتى جالسة بجوار المدفأة على مقعد صغير ، كان فيما مضى لوالدتها وهى طفلة ٠ وكانت قبعتها معلقة على الحائط وبدت وكأنها فى بيتها تماما ، تضحك وتتكلم مع هيرتون ، وهى فى منتهى السعادة ٠٠ وكان قد بلغ الثامنة عشرة من عمره

قوى البنية ٠٠٠ وينظر اليهـــا متطلعـــا باندهاش وفضول ٠ **فقلت وأنا أحاول اخفاء سرورى خلف نظرة غاضبة :**

ـ ان تصرفك قد أقلقنى يا آنستى ، هذه آخر مرة تغادرين فيها البيت الى أن يعود والدك ٠ لن أثق فيك ثانية يابنت ياشقية ! ارتدى هذه القبعة وهيا الى البيت فى الحال !

فقالت وهى تنخرط فى البكاء :

ـ ماذا فعلت ؟ ان أبى لايحدثنى بهذه اللهجة القاسية ٠ انه أفضل منك يا نيللى ٠

فتدخلت الخادمة قائلة :

ـ كلا ، خففى من غضبك على الآنســة الجميلة يامسز دين ٠ نحن الذين أوقفناها ٠ لقد أرادت أن تعود خوفا على قلقك ، لكن هيرتون عرض أن يذهب معها ووافقته على ذلك حيث أن الطريق وعر ٠٠

ولم أكترث لحديث الخـــادمة وتابعت حديثي قائلة :

ـ الى متى تتركينى أنتظر ؟ سيخيم الظلام بعد عشرة دقائق !

والتقطت قبعتها ، واقتربت منهـا لأضعها على رأسها ، ولكنها ، رأت أهل المنزل فى جانبها فراحت ترقص وتركض حول الغرفة ، ولما طاردتهـــا بدأت تركض كالفأر من فوق وتحت وخلف الأثاث ٠ وبدأ هيرتون والمرأة يضحكان ثم انضمت هى اليهما وهى تهزل بى بصورة مازحة الى أن صرخت بها فى ضيق :

ـ آنسة كاتى ، لو كنت تعرفين ببيت من أنت ، لأسرعت بالخروج !.

فاستدارت نحو هيرتون وسألته :

ـ انه بيت ابيك ، اليس كذلك ؟

فأجاب متلعثما :

ـ كلا ٠٠

– بيت من اذن ؟ سيدك ؟

فاحمر وجهه ولم يحر جوابا وولى مبتعدا . فقالت لى بطريقة شقية :

– لقد اعتقدت أنه ابن صاحب البيت . كان يقول « بيتنا » « منزلنا » ولم ينادينى بآنسة ، اذ كان يجب عليه ذلك لو كان من الخدم . أليس كذلك ؟

واسود لون هيرتون وأصبح كسحابة راعدة ، فالتفتت نحوه وقالت :

– احضر لى جوادى ، ويمكنك أن تأتى معى .. أسرع ! ماذا بك ؟

فقال لها الفتى متذمرا لاعنا بأنه ليس بخادم لها.

ولم تصدق كاتى ما سمعته وهى « الملكة » و « الحبيبة » فى البيت دائما ، فكيف تسمع من يلعنها ! فصرخت :

– مسز الين ، كيف يسمح لنفسه أن يكلمنى هكذا ؟ سأخبر والدى عما قلته أيها الشرير !

لم يكترث هيرتون بهذا التهديد ، فاغـرورقت عيناها بالدموع ، **وقالت موجهة كلامها للخادمة :**

ـ انت ·· احضرى لى جوادى ·

فاجابتها الخادمة :

ـ هدئى من روعك يا آنسة ، لن تخسرى شيئا لو تحدثت بشكل مهذب ··· فالسـيد هيرتون ابن خالك ، وأنا لست خادمتك الخاصة ·

فقالت كاتى وهى تضحك فى استخفاف :

ـ ابن خالى ؟ لماذا ، لقد ذهب والدى الى لندن ليحضر ابن عمتى وهذا ابن ···

وتوقف الكلام فى حلقها وراحت تبكى ·

لقد انزعجت منها ومن الخادمة لما كشـفاه من أسرار · فلا شـك أن قدوم ابن ايزابيللا المنتظـر ، سوف ينقل الى السيد هيثكليف ، كما تأكدت أن أول سؤال لكاتى عند عودة والدها سيكون عن تفسير صلة قرابة هيرتون ·

واستعاد هيرتون هدوءه بعد أن أســاءت فهمه وعاملته كخادم ، ويبـــدو أنه تأثر لضيقها ، فأحضر جوادها الى الباب · ولكى يرضيها ناولها كلبا صغيرا جميلا أتى به معه من الاسطبل ، وطلب منها أن تكف عن البكاء حيث أنه لم يقصد أية اساءة لها · فتوقفت عن بكائها ، ونظرت اليـــه فى فزع ·· ثم عادت الى ما كانت عليه ثانية ·

وقاومت الابتسامة بصعوبة وهى تشيح بوجهها عن الفتى المسكين الذى كان يبدو حسن المنظر ، جميل القد ، قويا ، نشيطا رغم أنه يرتدى ملابس تتلاءم مع عمله اليومى فى المزرعة ، وشعرت بأن لديه خصالا أفضـــل مما لدى أبيـــه · بعد ملاحظتى له ولطبيعته الشجاعة ·

وتخيلت أن السيد هيثكليف لم يتسبب فى أى أذى نحوه ، وانه وجه كل طاقاته لابقاء الفتى بعيدا عن المدينة ، فلم يعلمه مطلقا القراءة والكتابة ، ولم يهذب له أية عاده سيئة ولم يلقنه أية عادة طيبة !

رفضت الآنســـة كاتى عرضه السلمى للكلب الصغير وشرعنا للعودة الى البيت · ولم أســـتطع أن أكتشف من آنستى الصغيرة كيف قضت يومهـــا ، الا بأنها كانت متجهة الى الصخور عندما مرت ببوابة بيت مزرعـة مرتفعـات وذرينج حيث خرج هيرتون وهاجمتها كلابه ، ودارت معركة بينهم قبل أن يستطيع هيرتون ابعادهم عنها ، وخلق هذا فرصة للنعارف ، وسألته كاتى عن الطريق الى الصخور فأخذها الى هناك وأطلعها على الكهف ·

وأصبح هيرتون معززا الى أن جرحت شعوره · وحاولت اقناعها ان لا تذكر ما حدث لوالدها ، وبينت لها أنه يعترض على كل من بمرتفعات وذرينج ، وبأنه سيشعر بالأسف اذا سمع بأنها كانت هناك ، وربما اذا أخبرته بأننى أهملت أوامره فسيغضب ويجعلنى أغادر البيت ·· ولم تكن كاتى تقدر على تحمل فراقى، لذلك وعدتنى بالصمت ·· ولقد أوفت بكلمتها ، فهى فوق كل شيء ، فتاة صغيرة حلوة الخصال ··

الفصل الثالث والثلاثون

هيثكليف يطالب بابنه

وصلتنى رسالة موشاة بالأسود يعلن فيها سيدى عن موعد عودته بعـد وفاة ايزابيللا ، وطلب منى أن أجهز غرفة لابن اخته ٠٠ وكانت كاتى تطير من الفرحة لاستقبال والدها وهو عائد ومعه ابن عمتها .

وجاء اليوم ، ولم تطق آنستى الصغيرة صبرا ، فجعلتنى أعبر الحديقة كلهـــا للقائهم ٠٠ وظهرت العربة أخيرا ، فصرخت كاتى ورفعت بذراعيها عاليـــا عندما وقع نظرها على وجه أبيها مطلا من نافذة العربة ، ونزل والدها فى لهفة كلهفتها ٠٠ وأثنـــاء تبادلهما

القبلات ألقيت نظرة على لنتون الصغير الذى كان نائما فى ركن العربة ، ملفوفا فى الفراء ، وكأننا فى فصل الشتاء ٠٠ كان شاحبا ، رقيقا يشبه البنات ، وكانت ملامحه نفس ملامح سيدى تماما ، لكنه كان يبدو هزيلا سقيما ٠٠

ولما أفاق لنتون من نومه حمله سيدى ثم انزله الى الأرض قائلا :

ـ هذا هو لنتون ابن عمتك ياكاتى ٠

ثم جمع يديهما سويا وأضاف قائلا :

ـ انها مغرمة بك من قبل أن تراك ، حاول أن تكون مرحا سعيدا ، فالرحلة قد انتهت ٠

خجل الصبى من ترحاب كاتى ووضع أصابعه على عينيه ، ودخل ثلاثتهم الى البيت وصعدوا الى المكتبة ، حيث كان الشاى معدا ٠ وأجلست لنتون على كرسى من كراسى المائدة بعد أن خلعت له سترته ، ولكنه بدأ يصيح متذمرا :

ـ لا أستطيع أن أجلس على كرسى ٠

فاجابه خاله بصبر :

– اذهب واجلس فوق الأريكة اذن ، وستحضر لك نيللى الشاى هناك ٠

فحملت كاتى أحد الكراسى الصغيرة مع فنجانها وجلست بجانبه ٠ وبقيت صامتة فى بادىء الأمر ، ولكن لم يدم هذا طويلا ، اذ عزمت على ملاطفة ابن عمتها ، وبدأت تلامس خصلات شعره بلطف وتقبل خده وتقدم له الشاى فى طبق فنجانها وكأنه طفل صغير ٠ فانفرجت أساريره ومسح على عينيه وأخذ يبنسم ابتسامة باهتة ٠

وقال لى السيد بعد أن راقبهما لفترة :

– ستطيب له الحياة معنا يا نيللى ، اذا استطعنا الاحتفاظ به ٠ ومصاحبته لكاتى ستبعث فيه حياة جديدة ٠

فقلت لنفسى :

– أجل ، أتمنى ذلك لو استطعنا الاحتفاظ به معنا ٠

لكنني شعرت بان الأمل ضعيف في ذلك ٠٠ واخذت أتساءل كيف يمكن للطفل الضعيف أن يعيش في مرتفعات وذرينج بين أبيه وهيرتون ؟!

ولقد تحققت شكوكنا في الحال ٠٠

اذ بمجرد ان أخذت الطفلين الى غرفة النوم ، وجاءت الخادمة من المطبخ لتخبرني بأن يوسف ، خادم السيد هيثكليف ينتظر في الخارج ويريد مقابلة السيد ٠

وبعد تردد ذهبت الى المكتبة لأعلن عن قدوم هذا الزائر غير المرغوب فيه ٠ وكان يوسف قد تبعني دون أن ينتظر لأدعوه للدخول ، وقال :

ـ أرسلني هيثكليف لاخذ ابنه . ولا يمكن أن أعود اليه بدونه !

صمت ادجار لينون لفترة وارتسمت على وجهه علامات الأسى وبدا عليه حزن مرير لفكرة تسليمه للطفل ، ثم أجاب بهدوء :

ـ قل للسيد هيثكليف أن ابنه سيأتي لمرتفعات وذرينج غدا · أنه في فراشــه الآن ، ومتعب من أثر السفر ·

وانصرف يوسف بصعوبة لذهابه خالي الوفاض، بعد أن هدئنا بمجيء هيثكليف في اليوم التالي ··

الفصل الرابع والثلاثون

لنتون يذهب الى بيته

ولتجنب مغبة تنفيذ هذا التهديد ، أمرني ادجار أن آخذ الصبي في الصباح الباكر الى والده على جواد كاتي ، **وأضاف قائلا** :

ـ يجب أن لا تقولي لابنتي أين ذهب • فهي لن تستطيع رؤيته في المستقبل • قولي لها أن والده قد طلبه ، وكان لابد أن يتركنا •

ولم يرغب لنتون الصغير في مغادرة فراشه في الساعة الخامسة من الصباح التالي ، واندهش لقيامه برحلة جديدة • فأخذت أخفف عنه مشقة الاستيقاظ

قائلة له بانه سيمضى بضـــعة أيـام مع ابيه المشتاق لرؤيته بدون تأخير ٠

فصرخ الصبى قائلا :

– أبى ! لم تخبرنى ماما أبـدا بان لى أب ٠ لماذ لم يعش مع ماما سويا مثل بقية الناس ؟

– لقد كان لديه أعمال تجعله يبقى فى الشمال ٠ وصـحة والدتك كانت تحتم عليهـــا أن تعيش فى الجنوب ٠

ولم يقتنع الصبى ، **وعاد وقال :**

– أمى لم تكلمنى عنه ٠ كانت تكلمنى دائما عن خالى ، وهذا ما جعلنى أحبه ٠ وكيف أحب أبى ؟

فقلت :

– جميع الأطفال يحبون آباءهم ٠٠ هيا بنا ٠ فالركوب المبكر فى مثل هذا الصباح الجميل أفضل من ساعة نوم أخرى ٠

ـ هل هى ستذهب معنا ٠٠ الفتـاة الصغيرة التى رأيتها أمس ؟!

ـ ليس الآن !

ـ هل سيذهب خالى معنا ؟

ـ كلا ، سأذهب أنا معك الى هناك ٠

فغاص لنتون ثانية فى فراشه وقال :

ـ لن أذهب بدون خالى ٠

وكان على أن أستعين بمساعدة سيدى لانتزاعه من الفراش ٠ وأخيرا قام الصغير المسكين من فراشـه وهو يعلن أن زيارته لن تطول وأن على خاله وكاتى أن يزوراه مع وعود أخرى كنت أقطعها على نفسى ليس لها اى أساس من الصحة ٠

ومع الهـواء النقى وشروق الشمس بدأ ينشرح صدره ويســال عن بيته الجديد ٠٠ هل مرتفعـات وذرينج مكان جميل مثل مزرعة تراش كروس ؟ ٠٠ هل والده جميل المنظر مثل خاله ؟ ٠٠ **فقلت له :**

– ان بيتك أصعر ، لكنه ثانى قصر فى المنطقة ◦ أما والدك فهو مازال شابا فى عمر خالك ، لكنه أسود الشعر والعينين ويبدو أكثر قسوة ◦ وقد لا يبدو عطوفا لطيفا فى البداية ، ربما ، لكنه سوف يحبك أكثر من خالك ، لأنك ابنه ◦

وانشغل الصبى تماما ، بقية الطريق ، بأفكاره ◦ وكانت الساعة السادسة والنصف عندما وصلنا ◦ وكان أهل البيت قد انتهوا لتوهم من طعام الافطار ، وكانت الخادمة ترفع الاطبـاق وتنظف المائدة وما أن رآنى هيثكليف حتى صرخ قائلا :

– هالو ، نيللى ! هـل أحضرت ما يخصنى ؟ دعينى أراه ؟

ونهض متوجهـــا نحو الباب ، وتبعه هيرتون ويوسف بدافع الفضـول ◦ أما لنتون المسكين فنظر الى ثلاثتهم نظرة سريعة خائفة ◦

وقال يوسف بعد نظرة متفحصة :

ـ بالتاكيد ياسيدى د لقد بدل معك وأرسل لك فتاته !

وضحك هيثكليف باستهزاء وقال :

ـ يا للجمال ! يا للشىء الساحر الفتان · انه أسوأ مما توقعت !

عندئذ طلبت من الصبى المرتعش أن يترجل ويدخل · لم يفهم تماما حديث أبيه · ولم يكن متأكدا بعد ، أن هذا الغريب القاسى الهازىء هو أبوه ، ولكنه تشبث بى بخوف متزايد ، وعندما جلس السيد هيثكليف وطلب منه أن ياتى اليه ، أخفى وجهه فى كتفى ، وبكى ·

ومد هيثكليف يده وجذبه بقوة بين ركبتيه وهو يقول :

ـ تعال ! لا داعى لهذا الكلام الفارغ · اننا لن نؤذيك يالنتون ، أليس هذا اسمك ؟ انك تشبه والدتك تماما ، أين حصتى فيك ؟!

وخلع قبعة الصبى ودفع بخصلات شعره الكثيف للخلف وتحسس ذراعيه الرفيعتين وأصابعه الصغيرة ، وتوقف لنتون عن البكاء ورفع عينيه الزرقاوين الواسعتين ليتفحص من يتفحصه ، ثم سأله هيثكليف :

ـ هل تعرفنى ؟

فقال لنتون والخوف ينبعث من عينيه :

ـ كلا !

ـ كلا ؟ ياللعار ٠٠ ان والدتك لم توقظ شعورك نحوى ! انت ولدى ، وساءتنى بك ، فكن ولدا طيبا ٠ وانت يانيللى ، اجلسى ، اذا كنت متعبة ٠ والا فاذهبى الى البيت ٠ فلن يستقر هذا الوضع وأنت واقفة هكذا ٠

ـ حسن ، أرجو أن تكون كريما معه ياسيد هيثكليف ، فالصبى ضعيف ، وقد لايقوى على أن يعيش طويلا ٠

فقال ضاحكا :

ـ لاتخافى ، ساكون كريما جدا معه ٠ ولأبدا كرمي ، قم يا يوسف وأحضر طعام الافطار للصبى ، وانت يا هيرتون ! اذهب الى عملك ٠

ثم اضاف بعد ذهابهم :

ـ أجل ، ان ابنى سيكون مالكا للمكان الذى أنت فيه ، ولن أتمنى موته حتى اتأكد من كونى وريثه ٠ علاوة على أنه ابنى وأريد أن أستمتع برؤيته مالكا لممتلكاتهم ، ومستخدما أبناءهم فى زراعة أراضى آبائهم بالأجرة ٠٠ ان مثل هذه الفكرة فقط هى التى تجعلنى أتحمل هذا البائس ٠ انه عديم القيمة فى نفسه ، وانى أكرهه لما يعيده لى من ذكريات ! لكنه فى أمان معى ، ولدى غرفة مؤثثة بشكل جميل من أجله ٠ ولقد اتفقت مع مدرس ليقوم بالتدريس له ثلاث مرات فى الاسبوع ٠ ولقد أمرت هيرتون أن يطيعه ٠ فى الحقيقة ٠ لقد رتبت كل شىء لأجعل منه سيدا ٠ ومع كل هذا ، أرى أنه لايستحق تعبى ٠ لو تمنيت

أى شىء فى الدنيا لتمنيت أن أجده مدعاة لفخرى ، ولكن خاب أملى فى هذا الطفل الخنوع !

وأثناء حديثه ، أحضر يوسف الافطـار وكان عبارة عن عصيدة ، وضعها أمام لنتون الذى نظر اليها نظرة اشمئزاز ، وأعلن أنه لايستطيع أكلها ٠

وغضب يوسف ، ولكن هيثكليف طلب من مدبرة المنزل أن تقـــدم له ما يرغب فى أكله ٠ وانسللت خارجه ، حيث لم يكن هنـــاك سبب لبقائى ، وذلك أثناء انشـغال لنتون بكلب الرعى الودود ٠ ولكنى سمعت وأنا أغلق الباب صرخة ، وتكرار يائس لهذه الكلمات :

ـ لاتتركينى ! لن أبقى هنا ! لن أبقى هنا !

الفصل الخامس والثلاثون

تفضلا الى بيتى

كان أمامنا عمل شاق مع كاتى فى ذلك اليوم • فلقد استيقظت فى ثورة عارمة ، شغوفة بأن تلحق بابن عمتها وانخرطت فى البكاء لمغادرته البيت •

وكنت عندما أقابل مدبرة منزل مرتفعات وذرينج من حين لآخر فى القرية أسألها عن صحة لنتون ، حيث كان يعيش حياة مستترة ، مثل كاتى نفسها ، فلا يراه أحد • وعلمت أن صحته ضعيفة ، وأنه صعب التوجيه، ويبدو أن السيد هيثكليف يزداد كرها له رغم أنه يحاول أن يخفى ذلك • وكان لايحتمل أن يكون معه فى غرفة واحدة لمدة طويلة •

وكان لنتون يتعلم دروسه ، ويقضى أمسياته في غرفة صغيرة خاصة به ، أو يرقد في فراشه طوال اليوم ، حيث أنه كان دائما مصابا بالسعال ونزلات البرد ، ويشكو من الآلام والأوجاع بجميع أشكالها ..

وبعد سنتين تركت هذه السيدة المنزل وجاءت مدبرة أخرى مكانها ، لم أكن على معرفة بها .

ومر الوقت في المزرعة بطريقة سعيدة حتى بلغت الآنسة كاثى سن السادسة عشرة من عمرها . وكنا لانحتفل بيوم مولدها مطلقا ، لأنه كان يوم وفاة والدتها أيضا . وكان والدها يقضيه بمفرده ، ويقوم بالمشى الى المقبرة ويترك كاتى لتقوم بتسلية نفسها .

كان ذلك من أيام الربيع الجميلة . ونزلت سيدتى الصغيرة مرتدية ملابس الخروج قائلة بأن أباها قد سمح لها بالذهاب الى بداية منطقة المستنقعات معى ، على أن لا نتوغل فيها .

وأضافت قائلة :

ـ هيا أسرعى يانيللى ! أريد أن أرى الطيور الصغيرة التى هناك · لابد أنها أقامت أعشاشها ·

فقلت لها :

ـ أن المسافة الى هذه الطيور بعيدة !

فقالت :

ـ كلا ، لقد ذهبت مع أبى ورأيتها ·

لم أفكر كثيرا فى الأمر ، وأعددت نفسى ، وأقلعنا سويا · وكانت تركض هنا وهناك طول الطريق ، وفى البداية وجدت تسلية كبيرة فى الاستماع الى الطيور وهى تغرد من بعيد ومن قريب · واستمتعت بأشعة الشمس الدافئة وبمراقبة عزيزتى الصغيرة وخصلات شعرها الذهبى تتطاير من خلفها ، ووجهها الساطع ناعم نقى كالوردة ، وعينيها تلمعان بالسعادة·

فقلت لها :

ـ حسن ، أين طيورك يا آنسة كاتى ؟ لقد سرنا طويلا ؟!

فكانت تجيب باستمرار :

ــ أبعد قليلا ·· أبعد قليلا ··

وبدأت أخيرا أشعر بالارهـــاق وطلبت منهـا الاستعداد للرجوع · وكانت تتظاهر بعدم السمع ، وكان على أن أستمر فى اللحاق بها · واختفت من أمامى داخل تجويف الصخور ، وعندما ظهرت ثانية ، كانت لا تبعد أكثر عن ميلين من مرتفعات وذرينج · ورأيت شخصين يقومان بالقبض عليها ، وكان أحدهما السيد هيثكليف ·

قبضا عليها كسارقة أو على الأقل لأنها تصطاد الطيور فى المرتفعات وهى أرض ملك السيد هيثكليف ، الذى كان يحذرها ، وأظهرت هى له يديها الفارغتين قائلة :

ــ لم آخذ شيئا ، بل لم أعثر على أى طائر ·· لقد أخبرنى أبى بوجود كثير منها هنا ، وكنت أود أن ارى بيضها · !

وبابتسامة شريرة سألها هيثكليف من والدها ؟..

فاجابت :

ـ السيد لنتون صاحب مزرعة **تراش كروس** ،
اعتقد أنك لاتعرفني والا ما تحدثت معي بهذه الطريقة .

حال في نبرة استخفاف :

ـ وتعتقدين أن أباك رجل محترم ، اذن !

ـ ومن أنت ؟ ومن هذا الشاب ، أهو ابنك ؟

وأشارت الى هيرتون الذي بدا ضخما قويا
عما قبل ، لكنه لا يزال خشنا تعوزه اللباقة .

فتدخلت قائلة :

ـ آنسة كاتي . يجب أن نعود الى البيت الآن .

فاجاب هيثكليف وهو ينحيني جانبا :

ـ كلا ، هذا الشاب ليس ابني ... لكن لدى
ابن ، لقد رأيته من قبل .. اعتقد من الافضل لك

ولمربيتك أن ترتاحا قليلا . تفضلا الى بيتى ، وستلقيان ترحيبا كريما .

وهمست لكاتى بألا تقبل الدعوة بأية حال ، ولكنها ركضت نحو البيت ، وأمسك هيثكليف بذراعى . **فقلت :**

ـ ان عملك هذا ، يا سيد هيثكليف ، ليس لائقا ، وسيلومنى سيدى على هذا عند عودتنا .

فأجاب :

ـ اريدها أن ترى لنتون . فهو أحسن حالا فى هذه الأيام الأخيرة . أنى ارغب فى أن يحبا بعضهما ويتزوجا ، فهى ابنة خاله وهو ابن عمتها . وهذا كرم منى ، حيث أن الفتاة لن ترث شيئا عندما يموت أبوها .

فقلت :

ـ ان صحة لنتون ليست على مايرام ، واذا توفى ستصبح كاتى وريثة لهذا القصر .

ـ كلا ، لن تكون · فلا يوجـد ترتيب من هذا النوع فى الوصية · فالملكية سـتؤول الى ، ولتجنب النزاع أرغب فى أن يتزوجا ·

وتقدمنى نحو البوابة ، حيث كانت الآنسة كاتى تنتظرنا ·

الفصل السادس والثلاثون

الزيارة الثانية للمرتفعات

رمقت كاتى هيثكليف بنظرات عديدة ، وكأنها لم تستطع أن تقرر ماذا تفكر فيه ، ولكنه بدأ يبتسم حاليا وينعم من صوته عندما يخاطبها • ولكنى كنت لا أزال حمقاء ، فى أن أتخيل أن ذكرى والدتها قد تحثه على عدم ايذائها •

كان لنتون يقف بجانب المدفأة ، حيث كان قادما من الحقول ، وكان ينادى على يوسف ليحضر له حذاء جافا • لقد طالت قامته ، ومازال وجهه جميلا وكانت عيناه وبشرته أكثر صحة عما كانت عليه • وسأل هيثكليف وهو ينظر الى كاتى :

ـ والآن ، من هذا ؟ هل عرفته ؟

فنظرت كاتى اليهما فى ريبة ، وقالت :

ـ ابنك ؟

ـ ان ذاكرتك لضعيفة · وانت يالنتون الا تذكر ابنة خالك ، التى كنت ترغب فى مقابلتها دائما ؟

وصرخت كاتى بفرح :

ـ من ؟ لنتون ! هل هذا حقا لنتون الصغير ؟ انه أطول منى !

ثم قفزت نحـــوه وقبلتـــه ، وأخذا ينظران باندهـــاش الى التغيرات التى أجراهـــا الزمن عـلى مظهرهما · لقد اوصلت كاتى الى أقصى طول لها فى صحة وخفة روح ·

أما لنتون فكانت نظراته وتحـركاته تنقصـــها الحيوية ، لكن كان فى سلوكه نوع من الرشـاقة · ثم استدارت كاتى الى هيثكليف وشبت لتقبله ايضـا وهى تقول :

ـ وأنت زوج عمتى اذن ! اعتقد اننى ارتحت لك ، رغم أنك كنت فظيعا فى البداية . لماذا لاتزور المزرعة مع لنتون ؟

واستمرت تقول وهى تستدير نحوى :

ـ آه يانيللى يا شقية .. ياشريرة ، أتحاولين أن تمنعيننى من الدخول !

فقال هيثكليف :

ـ لاتضيعى قبلاتك على ، اعتقد اننى يجب أن اعلمك بأن السيد والدك متحامل ضدى . لقد تشاجرنا ذات مرة سويا ، واذا أخبرته عن زيارتك الى هنا ، فانه سيمنعك من المجيء مرة أخرى..

وسالته كاتى بدهشة وبخيبة أمل :

ـ وما هو سبب النزاع بينكما ؟

فاجاب هيثكليف :

ـ لقد رفض زواجى من شقيقته ، لأنه كان يرانى فقيرا ، وعندما تزوجتها حزن تماما .

ـ هذا خطأ ، وسأخبر والدى بذلك فى يوم ما ٠
أما لنتون وأنا فلا علاقة لنا بنزاعكما ٠ لن آتى الى هنا
بل سيأتى هو الى المزرعة ٠

فتمتم ابن عمتها قائلا :

ـ انها بعيدة ٠ أمشى أربعة أميال ! ان هذا قد يقتلنى ٠

ونظر الأب بنظرة احتقار مريرة لابنه وقال له :

ـ أليس لديك شيء تريه لابنة خالك ؟ خذها الى الحديقة قبل أن تغير حذاءك ٠

فسأل لنتون كاثى مبديا تقاعسه :

ـ الا تفضلين الجلوس هنا ؟

فأجابت وهى تنظر الى الباب :

ـ لا أدرى ٠

فاحتفظ بمقعده واقترب به من المدفأة ٠ ونهض هيثكليف ، ونادى على هيرتون ، فأجاب هيرتون الذى

ظهر فى الحال • لقد كان يغتسل ، كما هو ظاهر من خدوده البراقة وشعره المبتل • **فصرخت كاتى قائلة :**

ـ انه ليس ابن خالى ، أليس كذلك ياعمى ؟

ـ انه ابن أخ والدتك ، الا تحبينه ؟

وبدا على كاتى التردد ، وشبت وهمست بجملة فى اذن هيثكليف ، الذى ضحك وأصبح وجه هيرتون عابسا مكفهرا • لكن سيده ، أو الوصى عليه طارد عبوسه **قائلا :**

ـ ستكون المفضل بيننا يا هيرتون ! لقد قالت شيئا لطيفا جدا عنك • رافق الآنسة فى جولة حول المزرعة ، وتصرف كسيد • ولا تستخدم أية ألفاظ بذيئة ، ولا تبحلق فيها بعينيك ، وتكلم ببطء واحتفظ بيديك خارج جيوبك •

وراقبهما وهما يمران بالنافذة • وكان هيرتون يسير دون أن ينظر الى رفيقته • **وقال هيثكليف فى رضا :**

ـ لقد عقدت لســانه ، سيخشى أن يتفوه بأية كلمة نابيـــة . هل تتذكرينى ، يا نيللى ، وأنا فى سنه ؟ .. لا ، بل وأنا أصغر منه .. هل كنت غبيا هكذا ؟

فاجبت :

ـ اسوأ ، لأنك كنت عكر المزاج .

واستمر قائلا :

ـ اننى استمتع به هكذا ، ولو كان ولد غبيا لما استمتعت بنصف متعتى هذه . ويمكننى أن أتعاطف مع جميع أحاسيسه ، كونى أحسستها بنفسى . ولن يقدر على الهروب من فظاظتــه وجهله ، لأننى علمته بأن يتفاخر بحاله . لقد كنت معه أسرع مما كان أبوه معى . وأفضل شىء فى الموضوع ، أن هيرتون مغرم بى تماما . واذا قام أبوه من قبره ليتهمنى بالخطأ فى حق ابنه ، فسيتقاتل معه هذا الابن ليحمينى كصديقه الأوحد فى العالم !

وأصدر ضحكة شريرة ، بينما شعر لنتون أثناء ذلك ، ربما بالأسف لفقده فرصة مرافقة كاتى ، وبدا يقلق ، فنهض وانطلق خارجا .

وكانت كاتى تسـال هيرتون عن الكلمات التى فوق الباب ، ونظر هيرتون الى أعلى وأخذ يحك رأسه ثم اجاب :

ـ بعض الكتابة ، اننى لا أستطيع قراءتها ..

فاصدر لنتون ضـحكة صغيرة سخيفة ، وقال لكاتى :

ـ انه لايعرف حتى حروف اسمه . هل رأيت أحدا بهذا الجهل ؟ .. ولا يوجد هنـــاك الا مجـرد الكسل .. أليس كذلك يا هيرتون ؟ .. هل لاحظت نطقه السيء ؟ أنه يحتقر « تعليم الكتب » كما يسميه !

فقال هيرتون :

ـ لماذا ؟ ما الفائدة من ورائه ؟

وانفجر لنتون وكاتي في نوبة من الضحك بصوت عال ، وغادرهما الشاب الحانق المسكين ووجهه مشتعل بالغضب والخجل • ابتسم السيد هيثكليف عندما رآه يذهب ، ولكني رايته بعد ذلك يوجه نظرة كراهيـــة للاثنين اللذين اســـتمرا في الاســـتمتاع بالاحساس بالتفوق • وبدأت أكره لنتون أكثر مما أشفق عليه ، وأخذت أجد العذر لأبيه بعض الشيء في أن يفكر فيه بهذا الشكل السيء •

الفصل السابع والثلاثون

سر كاتى

بقينا بالمرتفعات الى ما بعد الظهر ، اذ لم أستطع انتزاع كاتى قبل ذلك • ولحسن الحظ بقى سيدى فى غرفته ، ولم يعرف شيئا عن غيابنا الطويل •

وفى اليوم التالى ، لم أشعر بالأسف ، رغم ان الحقيقة قد عرفت ، اذ اعتقدت أن المسئولية فى توجيه وتحذير سيدتى الصغيرة تقع على عاتق أبيها أكثر مما تقع على ، لكنه كان حذرا فى اعطاء الأسباب التى من أجلها يجب أن تتجنب أهل المرتفعات •

وكانت كاتى تحب أن تعرف الأسباب الحقيقية

لأى شيء يتعلق بشئونها ٠٠ وأخيرا أخبرها والدها باختصار عن معاملة هيثكليف لايزابيللا ٠٠ وبدا عليها أنها اندهشت وتكدرت لهذه الرؤية الجديدة للطبيعة البشرية ، حتى انه لم يجد من الضرورى أن يخبرها بأكثر من ذلك ٠

وقبلت والدها ، ثم انصرفت فى هدوء لمتابعة دروسها لساعة أو ساعتين ، ثم ذهبت معه بعد ذلك فى جولة حول القصر ، ومضى بقية اليوم كالمعتاد ٠ ومع ذلك ففى المساء عندما توجهت اليها فى غرفتها لمساعدتها فى خلع ملابسها ، وجدتها جاثية بجانب السرير وهى تبكى ٠ **فقلت لها :**

ـ يالك من طفلة ساذجة ! من المخجل أن تذرف عيناك دمعة واحدة على موضوع بسيط كهذا ٠

ـ اننى لا أبكى الا من أجل لنتون ، أنه سيشعر بخيبة أمل ان لم يرنى ثانية ٠

ـ كلام فارغ ! سيفهم ما حدث ، ولن يزعج نفسه بك أكثر من ذلك ٠

ـ ولكن ألا أكتب له كلمة موجزة أخبره فيهـا سبب عدم ذهابى ؟ ٠٠ أو أرسل له هذه الكتب التى وعدته بها ٠

فأجبتها بحسم :

ـ كلا بالطبع ، والا سيكتب لك ولن توجد نهاية للموضوع ٠

ـ ولكن مجرد رسالة قصيرة ٠٠٠

فقاطعتها قائلة :

ـ كفى ! لن نرسل أية رسالة ، واذهبى الى فراشك ٠

فرمقتنى بنظرة عاصـيـة وعنيدة لدرجة أننى لم أقبلها قبلة النـــوم ، وغطيتها وانصرفت ، وبعد أن أغلقت البـاب ، أحسست بالأسف ، فعدت اليهـــا بهدوء ، فوجدتها واقفة بجوار المائدة وتمسك فى يدها ورقة وقلما ، وعندما لاحظتنى أخفتهما مع احســاس بالذنب ، **فقلت لها :**

ـ لن يأخذها منك أحد اذا كتبتيها ٠

وأطفأت الشمعة وأنا أتحدث ٠٠

ومرت أسابيع واستردت كاتى هدوءها ، وأصبحت مغرمة بقراءة الكتب ٠٠ واذا اقتربت منها كانت تحاول أن تخفيها ، ويبدو أنها كانت تخفى بعض الأوراق بين صفحاتها ٠ وأصبحت لديها أيضا عادة النزول مبكرا الى المطبخ وكأنها تتوقع شيئا ، وكان لديها درج صغير فى خزانة المكتبة الذى تتفحصه طويلا ومفتاحه تحتفظ به فى حرص شديد ٠

وفى أحد الأيام ، لاحظت أن ما تخفيه فى سرية وغموض ما كان الا وريقات مطوية ، فتيقظ شكى وفضولى ، لذا بحثت بين مفاتيحى ، فوجدت مفتاحا يفتح هذا الدرج ، فأخذت أتفحص هذا الكنز الخاص بها ٠

كان يحتوى على مجموعة من الرسائل اليومية من لنتون هيثكليف تجيب على رسائل منها ، فربطتها فى منديل وأعدت اغلاق الدرج خاويا ٠

ورافبتها فى الصباح التالى ، وهى تنزل الى المطبخ مندفعة نحو الباب عند قدوم الصبى الصغير بائع اللبن• وأثناء تناول الخادم اللبن كانت هى تضع شيئا فى جيبه ، وتأخذ شيئا آخر منه • تبعت الصبى الى الحديقة ، ونجحت فى الامساك بالرسالة ، رغم أنه قاوم بشجاعة ليدافع عن الثقة التى وضعتها فيه ، فسكبنا اللبن فيما بيننا ، واستندت على الحائط وقرأتها • كانت أكثر بساطة وأخلاصا من رسائل ابن عمتها : جميلة جدا ، وبلهاء جدا •

كان يوما ممطرا ، لذلك ذهبت كاتى ، بعد الانتهاء من دراستها الصباحية ، الى درجها لتسلى نفسها • كان أبوها جالسا يقرأ على المائدة ، وكنت أنا ، عن قصد ، أصلح الستارة بجانب النافذة وأراقب كل ما يحدث •

لن يعبر أى طائر عن فجيعته ، بكل صراخه عندما يعود الى عشه ويجد صغاره مسروقين ، أكثر مما عبرت هى عنه فى الآهة الوحيدة التى أصدرتها !

ورفع السيد ادجار بصره وقال :

ـ ما الأمر ياعزيزتى ؟ هل جرحت نفسك ؟

فاجابت بصعوبة :

ـ لا يا أبى ، نيللى ! نيللى ! تعال الى غرفتى ، اننى أشعر بالأعياء !

وطاوعتها فى الحال ·

ـ أوه ، نيللى ، لقد اخذت الرسائل · أعيديها لى ، ولاتخبرى والدى بشىء ! لقد كنت عاصية تماما ، ولن أعود الى ذلك ثانية !

ـ سأذهب بهذه الرسائل الى المكتبة وسنرى ما يقوله والدك عن هذا الكلام الفارغ ·

وحاولت أن تأخذها منى ، ولكنى أمسكت بها ورفعتها فوق رأسى ، فاستعطفتنى أن أحرقها ، أو أفعل أى شىء فيها الا أن أذهب بها الى والدها ·
فقلت لها وأنا اقاوم لأمنع نفسى عن الضحك :

ـ هل تعديننى بألا ترسلى ولا تستلمى أية رسالة ولا كتاب ولا خصلة شعر ولا خواتم ولا أى شىء من هذه الألاعيب ؟ ٠

فصرخت كاتى وكبرياؤها يتغلب على خجلها :

ـ أننا لا نرسل ألاعيب ٠

ـ أهكذا ؟ اذن ، ياسيدتى !

فصرخت وهى تتمسك بثيابى :

ـ اننى أعدك يا نيللى !

ولكنى عندما بدأت فى وضع الرسائل فى المدفأة ، كانت التضحية مؤلمة ، فقالت :

ـ أرجو أن تبقى على رسالة أو اثنتين من أجل خاطر لنتون !

لكننى لم أكترث لطلبها ، وواصلت القاء الرسائل الى اللهيب ٠ فصرخت واضعة يدها فى المدفأة لتسحب قطعا نصفها محترق مع التساع أصابعها :

ـ أريد أن أحتفظ بواحدة فقط ، أيتها الظالمة !

ـ حسن جدا ‥ اذن سأعطى والدك بعضها !

عند ذلك أفرغت ما فى يدها من أوراق نصفها مسود فى النار ، وذهبت الى غرفتها دون أن تتفوه بكلمة ‥ أما أنا فنزلت لأخبر السيد بأن كاتى قد شفيت من نوبة الاعياء وأننى نصحتها بأن ترتاح فى فراشها قليلا ٠

وعلى موعد الشاى بدت شاحبة محمرة العينين ولكنها كانت فى حالة هدوء تام ٠

وفى الصباح التالى ، كتبت ردا على رسالة لنتون ما يلى :

« المطلوب من السيد لنتون هيثكليف الا يرسل أية رسائل أخرى للآنسة كاتى ، حيث أنها لن تستلمها » ٠

ومنذ ذلك الحين يأتى بائع اللبن الصغير ويذهب وجيوبه خاوية ٠

الفصل الثامن والثلاثون

نتيجة تسلق الجدار

وصل الصيف الى نهايته · وكانت المحاصيل متأخرة فى ذلك العام · فكان السيد ادجار وابنته كثيرا ما يتمشيان بين المزارعين العاملين فى الحقول ، وفى آخر أيام جمع المحاصيل بقيا حتى انسدل الليل · وكان نتيجة لذلك أن أصيب سيدى بنزلة برد شديدة أثرت فى رئتيه ، وجعلته يلازم البيت خلال فصل الشتاء بطوله ·

أما كاتى المسكينة ، فأصبحت أكثر قتامة وحزنا منذ انتهاء موضوع حبها التصير ، وأصر والدها أن تقلل من القراءة وتزيد من الرياضة والمشى · ولم

تعد تصاحبه ، ورغم أننى حاولت سـد النقص ، الا أننى لم أستطع الا توفير ساعتين أو ثلاث ساعات من واجباتى اليومية العديدة ٠

وبعد ظهر أحد الأيام الأولى من شهر نوفمبر ، بدت السماء وكأنها على وشك أن تمطر ، لذا طلبت من سيدتى الصغيرة الاقلاع عن فكرة المشى ، ولكنها رفضـت . لذلك ارتديت ملابس الخـروج وأنا غير راغبـة ، على أن أذهب معها الى نهاية المزرعة ٠ هذه هى التمشـية التى كانت تختـارها عندما تحس بالكآبة ، مثل الآن ، حيث حالة سيدى أصبحت أسوأ من المعتاد ٠

وعندما اقتربنا من باب مفتوح على الطريق ، أصبحت سـيدتى أكثر ابتهـاجا وتسلقت الحائط وجلست فوقه لتلتقط بعضـا من التوت الأحمـر من الشجرة البرية ، وسقطت قبعتها خـارج السـور ، فقفزت لتحضرها ٠

وكان الرجوع لداخل القصر ليس بالأمر السهل ،

لأن أحجار السور كانت ملساء من الخارج ، ولم أتذكر ذلك الا عندما سمعتها تضحك وتنادى قائلة :

ـ نيللى •• نيللى •• عليك أن تحضرى المفتاح والا على أن أركض حول المزرعة لأدخل من البوابة الرئيسية •

ـ ابق كما أنت ، فلربما أستطيع فتح الباب باحدى هذه المفاتيح الموجودة فى جيبى •

وحاولت جميع المفاتيح دون جدوى ، وبعدها سمعت صوت جواد ، ثم همست كاتى تحثنى قائلة :

ـ نيللى ، افتحى الباب •

ثم سمعت صوتا عميقا يصيح قائلا :

ـ أهلا يا كاتى ، اننى مسرور بلقائك • وأود أن أستفسر عن شىء ! •

فأجابت كاتى قائلة :

ـ اننى لا أريد التحدث معك يا سيد هيثكليف ، لأن والدى قال بأنك رجل شرير ، وانك تكرهنا نحن الاثنين ، وهذا ما قالته نيللى أيضا •

فقال هيثكليف :

ـ ان هذا ليس بيت القصيد . وأنا لا أكره ابنى ، على ما اظن ، وهذا ما جئت من أجله للفت انتباهك نحوه . أجل ! قد يكون هناك سبب لخجلك ! فلقد تعودت منذ شهرين أو ثلاثة أشهر على الكتابة الى لنتون . لقد حصلت على رسائلك ، واذا لم تستجيبى لى ، فسأطلع والدك على كل شيء . هل مللت التسلية ؟ حسن ، ان لنتون كان شغوفا بك .. انه يموت من أجلك ، وقلبه يتحطم بسبب قسوتك ، ويزداد سوءا كل يوم .. واذا لم تقدمى له يد المساعدة فسيكون تحت التراب قبل حلول الصيف القادم .

فصرخت :

ـ كيف تكذب على هذه المسكينة دون أدنى خجل ! كاتى .. سأكسر القفل بحجر لأفتحه .. دقيقة واحدة .. لاتصدقى كلامه .

فتمتم هيثكليف :

ـ لم أكن أعرف أن هناك من يتصنت · مسز دين ·· كيف تكذبين دون أدنى خجل ! آنسة كاتى سأغيب لمدة أسبوع عن البيت ، يمكنك ان تذهبى وتتأكدى من صدق قولى ·

وانكسر القفل ، وخرجت وأمسكت بذراع كاتى وأجبرتها تقريبا على الدخول ، حيث كانت تنظر الى المتحدث بعيون مضطربة · وأغلقت الباب · وكان المطر قد بدأ ينهمر فأسرعنا الى الداخل فى سكون ·

وفى المساء ، أخذت تبكى وحدها ، وكنا جالستين بجوار المدفأة ·

وكان حديثى معها بلا جدوى ، فلقد قام هيثكليف بدوره بكل مهارة وحذق ·

وقالت :

ـ قد تكونى على صواب يانيللى ، لكن لن يهدأ لى بال حتى أعرف !

وما فائــدة الغضــب والجدل ازاء تصميمهــا
وفى اليوم التالى توجهت الى مرتفعات وذرينج مع كاتى.
لم استطع تحمل سفها ولا وجههــا الشاحب وعينيها
الثقيلتين .. وأستسلمت على أمل أن ينقض لنتون ،
بطريقة استقباله لها ، ما قاله أبوه ..

الفصل التاسع والثلاثون

لنتون صعب الطباع

أعقب الليلة الممطرة صـــــباح ملىء بالضـــباب ، وأعترضـــت جداول الماء المندفعـــة من التلال طريقنا ، وابتلت قدماى تماما ، وأحسست بالضيق والانزعاج . ودخلنا بيت المزرعة عن طريق المطبخ ، لنتأكد من عدم وجود هيثكليف فعلا .

كان يوسف يجلس بمفرده قرب المدفأة ، يستمتع بالدفء ، وغليونه فى فمه ، وأخذ يجيب على اسئلتنا بغير مبالاة . **وسمعنا صوتا من الداخل ينادى :**

—يوسف ! كم مرة سأنادى عليك ؟ لم يبق الا قليل من الرماد الأحمر .

لم يبد يوسف أى اهتمام ، ولم نر مدبرة المنزل ولا هيرتون ، ربما كانا مشغولين في مكان آخر • وعندما تأكدنا أنه صوت لنتون ، أسرعنا اليه • وطارت ابنة خاله الى جواره •

فرفع رأسه من على مسند الكرسى الكبير الذى يرقد عليه **وقال** :

ـ أهذه انت ياكاتى ؟ ارجو أن تغلقى الباب من فضلك ، لقد تركته مفتوحا ، وهؤلاء الأنذال يرفضون احضار الفحم للمدفأة ، أن البرد لشديد !

قمت وأشرفت على المدفأة ، وأحضرت بعض الفحم بنفسى • وأخذ الصبى المريض يشتكى من أن الرماد يغطيه ، لكنه كان يسعل سعالا شديدا ، وبدت عليه الحمى •• **وقالت له كاتى** :

ـ حسنا يالنتون ، هل أنت مسرور برؤيتى ؟

ـ لماذا لم تأت من قبل ؟ كان يجب أن تأتى ، بدلا من الكتابة • ان كتابة الرسائل اتعبتنى بشكل

فظيع · والآن ، لا استطيع ان أحتمل الكلام ، ولا أى شىء آخر ·· أين زيللا ؟ هل تسمحى أن تبحثى عنها فى المطبخ ·

وحيث أننى لم أحصل على أى شكر ازاء ما قمت به من خدمات أخرى ، لذلك بقيت حيثما كنت ، واجبت :

ـ لا يوجد أحد هناك سوى يوسف ·

ـ أريد أن أشرب · ان زيللا دائمة الذهاب الى جيمرتون ، منذ أن تغيب والدى ، وأنا مضطر أن أنزل الى هنا ·· لأنهم يتظاهرون بعدم سماعهم نداءاتى من الطابق العلوى ·

وذهبت كاتى تبحث له عن ماء وملأت له كوبا وأحضرته له · فطلب منها أن تضيف ملعقة نبيذ فيه من زجاجة على المائدة ، وبعد أن ابتلع قليلا ، بدى أفضل حالا ، وقال أنها كريمة جدا · ثم كررت سؤالها :

ـ هل أنت سعيد برؤيتى ؟

ـ أجل ، ولكن عدم حضورك من قبل أزعجنى ، وقال والـدى أنها غلطتى وأننى عديم النفـع ، وقال لو كان مكانى لأصبح حاليا سيد مزرعة تراش كروس، بدلا من والدك ٠

وقالت كاتى :

ـ اننى لا أجرؤ على الحضور ووالدك موجود ، هذا اذا حصلت على اذن والدى ٠ أود أن أقضى نصف وقتى معك ٠ كم أتمنى لو تكون أخى !

ـ اذن ستحبيننى كما تحبين والدك ؟ لكن أبى يقول بأنك ستحبيننى أكثر من أى شخص آخر ، اذا كنت زوجتى ٠

ـ الناس يكرهون أزواجهـم أحيانا ٠٠ لكنهـم لا يكرهون أخوتهم ٠

فأعلن لنتون أن الناس لا يكرهون أزواجهـم ، لكن كاتى كررت قولهـا وأعطت مثل أبيه وكراهيته لعمتها ٠ وحاولت أن أضع حدا لحديثها ، لكنها كشفت

له عن كل ما تعلمه · واعلن لنتون ان قصتها مزيفة ·
فاجابت :

– لقد اخبرنى ابى بذلك وهو لا يقول لى أشياء
مزيفة ·

– ان أبى يحتقر والدك !

– ان والدك رجل شرير !

فقال لنتون :

– حسنا ، ساخبرك بشىء : ان والدتك كانت
تكره والدك ، فما رايك ؟

فصرخت كاتى ، ومن غضبها لم تستمر ،
فاضاف هو قائلا :

– وهى أحبت والدى !

فصرخت كاتى :

– هذا افتراء ·· وأنا أكرهك الآن ·

فاخذ يغنى قائلا وهو يغوص فى كرسيه مستمتعا بتعاسة رفيقته التى تقف خلفه :

ـ احبته ! ·· أحبته !!

وفقدت كاتى التحكم فى نفسها ، فدفعت بالكرسى بعنف ، فتسببت فى سقوطه على ذراعه ، انتابته نوبة سعال أوقفت تنفسه . فأنهت فى الحال لحظة انتصاره وأصابنى الخوف على لنتون ·· اما ابنة خاله فأخذت تبكى بعنف برغم أنها لم تضق شيئا ، وامسكت به حتى انتهت النوبة · ثم دفع بى بعيدا ، وأحنى رأسه الى أسفل فى سكون · وأخذت كاتى مقعدا مقابلا له وأخذت تنظر الى المدفأة · وبعد عشر دقائق تقريبا سالته :

ـ ماذا تشعر الآن ياسيد لنتون ؟

فاجاب :

ـ أود أن تشعر ما أشعر به · هذه القاسية !

وأخذ يئن لمدة ربع ســـاعة فقالت ابنة خالـه اخيرا :

ـ آسفة ان كنت آذيتك يالنتون · لم أكن اتخيل أن دفعة بسيطة كهذه تسبب لك كل هذا · أنهـا لم تكن قوية ، أليس كذلك ؟

فتمتم قائلا :

ـ لم أعد اقدر على الحديث معك ، لقد آذيتني جدا ، وسأظل متيقظا طوال الليل على هذا السعال ·

وبدأ يبكي ·· فسألته كاتي بحزن :

ـ هل تريد أن أذهب ؟

ـ دعيني وحدى !

وانتظرت طويلا ·· ولم ينظر اليها · وفى النهاية تحركت في اتجاه الباب وانا من خلفها ، ولكننا عدنا على صوت صرخة قوية ، فقد وقع لنتون من مقعده على الأرض وأخذ يتلوى · وانحنت كاتي وأخذت تصرخ · فقلت :

ـ سارفعه ليرتاح على الكنبة وليتلوى كما يشاء · لا نستطيع أن نقف ونراقبه · وأرجو أن تكوني قد اقتنعت بأنك لن تكوني مفيدة له ·

فاقتربت منه ووضعت وسادة تحت رأسه ، وقدمت له الماء · فرفض أن يشرب واشتكى بأن الوسادة عالية عليه ، وبانه لن يدعها تتركه · وغنت له عددا من الأغنيات ، وهكذا استمرا حتى أعلنت الساعة الثانية عشرة · وعندما نهضت للذهاب ، **امسك بثوبها وسألها :**

ـ وغدا ، ياكاتى ، هل ستأتين ؟

وهمست فى اذنه ، ثم غادرنا أخيرا ··

وعندما خرجنا من البيت ، **قلت لها :**

ـ لن تذهبى غدا يا آنسة ؟

فابتسمت كاتى ، **وأضفت أنا قائلة :**

ـ سأقوم باصلاح القفل المكسور فورا ·

فقالت ضاحكة :

يمكننى القفز من السور ، فالمزرعة ليست سجنا ، وعلاوة على ذلك فسأبلغ السابعة عشرة قريبا· وسيكون شفاء لنتون أسرع اذا اعتنيت به أنا ··

– اسمعي يا آنسـة ٠٠ اذا حاولت أن تذهبى الى مرتفعات وذرينج ثانية فسأخبر والدك ٠

وصلنا البيت قبـــل موعد الغداء ، ولم يطلب سيدى أى استفسار عن غيابنا ، ربما أعتقد أننا كنا نتجول فى المنتزة ٠ وعندما دخلت أسرعت فى تغيير حذائى المبتل وكذلك جوربى ، لكننى أصبحت مريضة فى اليوم التالى ، وظللت فى فراشى لمدة ثلاثة أسابيع ، لا أستطيع أن أقوم بواجباتى ٠

وتصرفت آنستى الصغيرة معى كالقديسة ترعانى وتدخل البهجة على وحدتى ٠ وكان يومها مقسما بين حجرة والدها وحجرتى وأهملت واجباتهـا ودراستها ولعبهـا ٠

حقا أن سيدى كان ينـــام مبكرا وأنا لم أكن أحتاج لأى شىء بعد الساعة السادسة ، ولا أعرف كيف كانت تقضى وقتها بعد موعد الشاى ٠

الفصل الأربعون

زيارات ممنوعة

استطعت أخيرا أن أغادر حجرتى ، وأتحرك فى المنزل • وأول مرة أجلس فيها فى المساء ، طلبت من كاتى أن تقرأ لى ، أن عينيى كانتا ضعيفتين • فقـــامت بذلك بلا حماس ، وبعد نصف ساعة بدأت تسألنى :

ـ نيلل ، ألست متعبة ؟ أليس من الأفضل أن تستريحى فى فراشك ؟

واجبتها أكثر من مرة :

ـ لا يا عزيزتى ، اننى لست متعبة •

فبدأت تتثاءب ، وتفرك فى عينيهـــا وتنظر الى ساعتها • وأخيرا عادت الى حجرتها •

وفى الليلة التالية بدت أكثر قلقا ، وفى الليلة الثالثة اشتكت من الصداع ، وتركتنى • شعرت بأن سلوكها غريب ، وبعد فترة ، صعدت اليهـــا لأطمئن عليها ، ولكنى لم أعثر عليها ، ولم يشهدها الخدم ، وكل شىء كان ساكنا فى غرفة السيد ادجار • فعـــدت الى غرفتها وأطفأت الشمعة وجلست قرب النافذة •

كان القمر بدرا ، وأخذت أتساءل هل خطر على بالها أن تتمشى فى الحديقة • ورأيت شبحا زاحفا على طول السياج الداخلى للمنتزه ، ولكنه ظهر أنه أحـد عمال الاسطبل • ووقف يراقب طريق العربات لفترة ، ثم اختفى فجأة ، ثم ظهر ثانية وهو يســحب جواد كاتى ، وهاهى تترجل من عليه وتسير بجواره • ثم دخلت حجرة الاستقبال من النافذة •• وصعدت بهدوء الى حجرتها • وأغلقت البـــاب بلطف وخلعت حذاءها الطويل وفكت قبعتها ، وكانت على وشك أن تخـــلع

ملابس الخروج ، عندما نهضت فجأة ، واظهرت نفسى ، فوقفت بلا حراك واعترتها الدهشة ، وقلت لها :

– أين كنت يا عزيزتى فى هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

– مشيت الى آخر المزرعة ٠

– ألم تذهب الى مكان آخر ؟

فقالت فى صوت خفيض :

– لا

فصرخت فى اسف :

– أوه ! ٠٠ كاتى ، أنت تعــرفين ان تصرفك خطأ ٠ أفضل أن اظل ثلاثة اشهر مريضـــة على ان أسمعك تكذبين !

فقفزت نحـــوى والقت بذراعيهـا حول عنقى ، وانفجرت فى البكاء قائلة :

– حسنا ، أخشى أن تغضبى منى ٠ اعدينى بالا

تغضبي ، وسأخبرك بالحقيقـــة ٠٠ اننى أكره اخفاءها عليك ٠٠ لقد ذهبت الى مرتفعـــات وذرينج ، لأفى بوعدى للنتون ٠ لقد حصلت على المفتاح عند اصـــلاح باب المنتزه ٠ وكنت أذهب كل يوم منذ أول مرضك ٠ ولكنى لم أذهب للتسلية بل كنت تعيسة معظم الوقت ، لم أسعد ربما الا مرة فى الاسبوع ٠

وفى زيارتى الثانية كان لنتون يبـــدو فى حالة طيبة ٠ ضحكنا وسعدنا بحديثنا لحوالى ساعة ، وتعبت من الجلوس فاقترحت أن نلعب أى لعبة ، فوافق على لعب الكرة معى ٠ وكنت أكسب كل مرة ، ثم عاد الى سعاله ثانية ورقد ، وعنـــدما غنيت له بعض الأغانى الجميلة استرد روحه المرحة بسهولة ٠ وعدت فى تلك الليلة راكبة جوادى الى البيت كنسمة هواء ٠

وفى تلك الليلة ، قابلنى هيرتون ، وأمســـك بجوادى ، فطلبت منه أن يتركه ، فتحرك ونظر الى أعلى نحو الحروف المحفورة على الحجر فوق الباب الأمامى وقال بغباء مخلوط بالفخر :

ـ آنسة كاتى · أستطيع ان اقرأ ذلك الآن ·

فقلت :

ـ مدهش ، دعنى أسمعك اذن !

فراح يتهجى الكلمات ببطء : « هيرتون ايرنشو »

فصحت فيه مشجعة :

ـ والأرقام ؟ .

ـ لا أستطيع قراءتها بعد ·

وضحكت وطلبت منـــه أن يمشى ، حيث أننى جئت لأرى لنتون ، لا لأراه هو ، فاحمر وجهه ، وذهب متضايقا · أظن أنه يعتقد أنه متعلم مثل لنتون !

فقاطعتها قائلة :

ـ تذكرى أن هيرتون قريبك مثل السيد لنتون · على الأقل هذه علامة على طموحه فى رغبته فى التعلم ، لقد أخجلته من جهله قبل ذلك ، وحاول هو أن يعالج ذلك ويرضيك · واذا تربيت مثـــله ، فهـل كنت

ستصبحين أفضل منه ؟ لقد كان طفلا ذكيا ولماحا مثلما كنت ٠

ـ انتظرى يا نيلل ، واسمعى البقية ٠٠ دخلت ، كان لنتون راقدا على المقعد الخشبى فى المطبخ وقال أنه مريض ، وطلب منى ان اقرأ له قليلا ، وقبل أن أبدأ ، دخل هيرتون دافعا بالباب وامسك بذراع لنتون وشده من على المقعد وقال له فى صوت حانق :

ـ اذهب الى غرفتك ، وخذها معك ، اذا كانت تأتى لتراك ، ولا تدعنى أظل خارج هذا المكان !

وأخذ يسب ، وكاد أن يلقى بلنتون خارجا ٠

وخرج بالفعل وتبعته ، وسـقط كتابى فركله ورائى وأغلق الباب وراءنا ٠ وقف لنتون شاحبا مرتعشا ٠٠ وكانت عيناه تبرقان بالجنون والغضب ٠ وأخـذ يهز مقبض الباب موجها تهديداته لهيرتون ٠

وأمسكت بيديه وحاولت ان أسحبه بعيدا ٠ واخيرا توقف صراخه اثر نوبة سعال حادة ، وأخذ الدم يتدفق من فمه ، وسقط على الأرض ٠ فركضت الى الفنـاء

منادية على زيللا · وفى هذه الأثناء حمل هيرتون لنتون الى الطابق العلوى ، واغلق يوسف الباب ، وطلب منى ثلاثتهم أن أعود الى البيت ·

وظهر هيرتون ثانية ، وأنا فى أول الطريق وقال :

ـ آنسة كاتى ·· أنا آسف ·· !

فضربته بسوطى ، وركضت بجوادى ···

ولم أذهبْ الى المرتفعات فى المساء التالى · جاءنى وهم بأن لنتون قد مات ·

وفى اليوم الثالث استرددت شجاعتى وذهبت · فوجدته راقدا على كنبة فى حجرة صــــغيرة بالطـابق العلوى ، يقرأ أحد كتبى · ولم يلتفت نحوى ولم يحدثنى بكلمة ، وعندما فتح فمه بدأ يعاتبنى ويضع اللوم على لا على هيرتون ، لما حدث ! فنهضت وتركت الحجرة ، وعزمت ألا أزوره ثانية ·· لكنى عدت لزيارته بعــد يومين وأخبرته بأنى قد جئت ليس كما يعتقد من أجل ايذائه ، ولكنى جئت لأودعه ، وعليه أن يخبر والده بذلك ·

فقال لى :

ـ انك أكثر سـعادة منى يا كاتى ، ويجب أن تكونى أفضـل منى • فانا أحيـانا أكون تافها سىء المزاج ، ثابط الهمة ، لكن تأكدى لو أمكننى أن أكون حلوا كريما وطيبا مثلك لفعلت •• ان كرمك جعلنى أحبك بشكل أعمق مما اذا كنت أستحق حبك ، ورغم أنى لا أستطيع الا أن أبين طبيعتى لك ، الا أننى سأسف على ذلك حتى يوم وفاتى !

وشعرت بأنه يتحدث بصدق ، ويجب أن أغفر له • ومضت ثلاث زيارات ونحن نشعر بالسعادة والأمل •• أما باقى الزيارات فكانت كئيبة تعسـة بسبب أنانيته وسوء طبعه ، وبسبب ما يعانيـه من آلام • وتعلمت أن أتحملها جميعهـا • وتجنبنى السـيد هيثكليف عن قصد ، ولم أره • والآن يا نيللى ، قد سمعت كل شىء ، وأظنك لن تخبرى والدى • أليس كذلك ؟ •

فكرت كثيرا بهذا الموضوع ، ثم ذهبت الى حجرة

سيدى مباشرة واخبرته بالقصة كلها ٠٠ وانزعج السيد ادجار ٠ وعلمت كاتى بانتهاء زياراتها ٠ وبكت دون جدوى ٠ وكل ما حصلت عليه كمواساة ، هو وعد بأن أباها سيكتب ليعطى ابن عمتها الاذن ليأتى الى المزرعة عندما يرغب فى ذلك ٠ وربما لو كان قد أدرك طبيعة ابن أخته الحقيقية وحالته الصـحية ، وهى التفاصيل التى لم أقصها عليه ، لما سمح له حتى بذلك ٠٠ .

الفصل الحادى والأربعون

لقاء فى المستنقعات

كانت كاتى مطيعة لأوامر والدها ، وحبها له مازال يحتل المركز الأول فى قلبها • وقد تحدث معها بدون غضب ، بل وبكل حب وحنان لأب على وشك أن يترك كنزه بين الأخطار والأعداء • **وبعد أيام قال لى :**

– أود أن يكتب لنا إبن شقيقتى أو يزورنا • نيللى أخبرينى باخلاص ، ما رأيك فيه ؟ هل تغير للأحسن ؟ أو هل هنـــــاك أمل فى أن يتحسن عندما يكبر ؟ •

فاجبته :

ـ انه ضعيف جدا يا سيدى ، ومن الصعب أن يقوم بواجباته كرجل ، ولكن يمكننى أن أقول بأنه ليس كأبيه ، وان تزوجته الآنسة كاتى ، فلن يكون خارج نطاق سيطرتها ٠

فتنهد ادجار ومشى الى النافذة وأطل فى اتجاه كنيسة جيمرتون ، وقال :

ـ لقد دعوت ربى كثيرا ، أن يجعل ساعة موتى قريبة حيث أرقد بجوار زوجتى هناك ٠ ولكنى بدأت ، الآن ، أخاف هذه الساعة ٠٠ لأنى لا أدرى ما أفعـــله لكاتى ؟ كيف أتركها هكذا ؟ ٠٠ اننى لا أهتم اطلاقا بما اذا كان لنتون ابن هيثكليف يستطيع اســـعادها ويعوضها عن فقدانها لى ٠ لكنه اذا كان عبـــدا ضعيفا لأبيه ، فلا أستطيع أن أتركها له !

أقبل الربيع ، واقترب على الانتهاء ولم يكن سيدى قد اســـــترد قوته كما كان ، وعاد مرة أخرى لجولاته القصيرة حول أراضيه برفقة ابنته ، التى اعتقدت لقلة

خبرتها ان استعادته للون بشرته ولمعان عينيه دليل على استرداده لصحته ٠

وكتب مرة أخرى لابن شقيقته معبرا عن رغبته لرؤيته ٠ ولا أشك فى أن حالته الصحية كانت لا تسمح بذلك ٠ لكن لنتون بعث برد يقول فيه بأن السـيد هيثكليف يعترض على زيارته للمزرعة ، لكنه يأمل أن يقابل خاله أثناء تجواله مع ابنة خاله أيضا ٠

ورغم أن ادجار كان متعاطفا مع لنتون ، الا أنه لم يستطع تحقيق رغبته ، لأنه توقف عن تجواله مع ابنته ٠٠

وعندما أقبل الصيف ووجد صحته تتـدهور ، اضطر أخيرا أن يسمح لهما أن يركبا أو يتجولا سويا مرة كل أسبوع تحت اشرافى ٠ ورغم أنه كان يدخر جزءا من دخله السنوى حتى تجد كاتى المال الكافى عند موته الا أن رغبته الطبيعية كانت فى أن تحتفظ كاتى ببيت العائلة القديم ، واعتبر زواجها من لنتون وريثه هى الفرصة الوحيدة لذلك ٠

ولم يدر بخلده أن ابن أخته كان يتدهور صحيا مثله تماما • وبدأت أنا نفسى أتخيل أن مخاوفى كانت زائفة ، وأن صحته لابد أن تكون فى تحسن مستمر ، خصوصا عندما اقترح الركوب والتجول فى منطقـــة المستنقعات •• ولم أدرك مدى معاملة أبيه الشريرة له عندما رأى أن خططه الجهنمية يهددها الموت بالفشل •

كان الصيف قد مضى أكثر من نصفه، عندما بدأت مع كاتى فى أول لقاء مع ابن عمتها • كان يوما ثقيلا غائبة شمسه ، وكان مكان لقائنا قد تحدد عند ملتقى طريقين ، ولكننا عندما وصلنـــا الى هناك جاءنا مزارع صغير أرسله لنتون ليخبرنا أنه موجود بالصدفة فى هذا الجانب من المرتفعات وسيكون عظيم الامتنان اذا ذهبنا اليه •

والتقينا به على بعد ربع ميل من منزله • كان راقدا على الأرض فى انتظار قدومنا ، ولم ينهض الى أن وصلنا على بعد خطوات منه • وأقبل نحونا بصعوبة ونظر الينا بوجه شاحب •

ونظرت كاتى اليه فى حزن مشوب بالدهشة وراحت تساله عن صحته ، وان كانت حالته أسوأ من المعتـاد ، فأجابها لاهثا وهو يمسك بيدها وأطرافه ترتجف وكأنه فى حاجة للمساعدة ٠

ـ لا ، أفضل ٠٠ أفضل ٠٠ !

ـ لكنك تبدو أسوأ ٠٠ انك أنحف ، و ٠٠٠

فقاطعها بسرعة قائلا :

ـ اننى أشعر بالتعب ٠ والجو حار على أن نتجول ، دعينا نستريح هنا ٠ اننى أشعر بالاعياء فى كثير من الأحيان ويقول أبى أن نموى سريع وقد يكون هـــذا هو السبب ٠

جلست كاتى ورقد هو بجانبها ٠ تحدثت وأنصت هو ٠ كان واضحا أنه لا يقدر على الحديث ٠ وكان جليا عجزه عن حسن الاستماع لما تقوله له وعدم مقدرته على تسليتها بأى شكل لدرجة أنها لم تستطع أن تخفى خيبة أملها ٠

لقد تغير كلية فى شخصيته وفى تصرفاته • فلقد اصبح ضعيفا كئيبا ، ولاحظنا شعوره ، وكان هذا اللقاء كان بمثابة عقاب بدلا من أن يكون متعة له ، لذلك لم تتردد كاتى فى أن تقترح علينا الرحيل ، الأمر الذى أثار لنتون بشكل غير متوقع وألقى به فى حالة من الخوف • وأخذ ينظر الى المرتفعات بقلق متوسلا أن تبقى معه نصف ساعة أخرى على الأقل ، وقال :

ـ ارتاحى يا نيللى • وأنت يا كاتى لا تظنى أننى مريض • انه الطقس الثقيل والحرارة لا أكثر • لقد تجولت كثيرا قبل مجيئك • اخبرى خالى أنى فى صحة طيبة ، ممكن ؟

ـ سأخبره بأنك تقول ذلك !

فقال متجنبا نظرتها المتحيرة :

ـ ولتاتى ثانية الخميس القادم •• و •• واذا التقيت بأبى فلا تجعليه يظن أننى كنت صامتا أو غبيا .. ولا تبدين حزينة ، والا سيغضب •

فسالتـه :

– هل يعاملك والدك بقسوة حاليا ؟

فنظر لنتون الى ، لكنه لم يجب على سؤالى ، وبدا الارهاق والألم على وجهه ، وما لبث رأسه أن انحنى فوق صدره وبدأ يئن من الارهاق أو ربمـــا من الألم وبدأت كاتى تجمع بعضا من التوت كنوع من التسلية وسالتنى فى صوت خفيض :

– لماذا طلب رؤيتى ؟ يبـدو وكأنه واجب يؤديه ومجبر عليه خوفا من تأنيب والده له ٠

فافاق لنتون فجاة من غفوته وقال :

– أصمتا ! ٠٠ اننى أسمع صوت والدى ! ٠٠ انه قادم ٠

وأمسـك بذراع كاتى ، لكنها تخلصـــت منه ، وأحضرت جوادها وصرخت وهى تمتطيه :

– الى اللقاء ٠ هيا أسرعى يا نيللى !

وعندما وصلنا البيت ، راح ادجار يستفسر عما تم

فى المقابلة ، ونحن بدورنا لم نذكر له الا القليل : اذ أن كاتى كانت تشك فى ابن عمتها من حيث مبالغته فى مرضه ، أما أنا فكنت فى حيرة لما يجب أن أخفيه عنه وما يجب أن أخبره به ·

الفصل الثاني والأربعون

الفخ

ومر أسبوع ·· كانت حالة ادجار الصحية تزداد سوءا يوما بعد يوم ·· كنا نود أن نخفى الحقيقة عن كاتى ، لكن روحها اللماحة أحســـت بما يقترب · وعندما جاء يوم الخميس ، لم تتحمل أن تذكر موعد لقائها مع لنتون · لكنى فعلت ذلك ·· وطلبت جوادها وأمرتها بالخروج ، حيث أن حجرة والدها المريض كانت كل عالمها ، وكانت تقضى كل لحظة بجانبه · فوجهها كان قد أصبح شاحبا من المراقبة والأسى ، ولقد أرسلها سيدى بكل سرور الى ما كان يظنـــه مكانا ســـعيدا للتغيير ··

كانت لديه فكرة ثالثة ، وهى طالما أن ابن أخته يشبهه فى المظهر ، فلابد أنه يشبهه فى التفكير أيضا · وكانت رسائل لنتون التى كتبها ، بلا شك ، بتوجيه من أبيه تبدى بعض ملامح من شخصيته الحقيقية · ولم أصحح له تفكيره ، قائلة لنفسى ما الجدوى فى ازعاج سيدى فى أيامه الأخيرة بمعلومات هو عاجز عن الاستفادة بها ·

كانت كاتى مفجوعة القلب حزنا على أبيها عندما خرجنا فى ذلك اليوم لمقابلة لنتون الذى كان بانتظارها فى نفس المكان السابق · كانت فيه حيوية أكثر هذه المرة فى طريقة استقباله لنا ، لكنها لم تكن نابعة عن ابتهاج ، ولا عن فرح ، لكن عن خوف ·· **فقال بحدة والكلمات تصدر منه بصعوبة :**

ـ لقد تأخرتما ! هل والدك بحالة خطرة ؟ لقد اعتقدت بأنك لن تأتى ·

وقالت كاتى بعد ان تجمدت التحية على شفتيها :

ـ نعم ، ان والدى مريض جدا · ولماذا لم تحلنى من موعدى اذا كنت تعتقد بأننى لن آتى ·· ؟

عند ذلك نظر اليها لنتون بخجل وقال :

ـ أرجـوك يـا كاتى ، لا تنظرى الى بكل هذا الغضب ، فأنا جبان حقير ، ولكنى لا أستطيع أن أتحمل غضبك · اكرهى أبى كما تشائين ، ولكن ، اعفى عنى!

فصرخت كاتى بغضب :

ـ كلام فارغ ! انه يرتعد وكأننى سألمسه ! ابتعد عنى ! اترك ملابسى !

ورمى لنتون بنفسه على الأرض والدموع تنهمر من عينيه **وهو يقول :**

ـ آه يا كاتى ! لم أعد أحتمل ! أن تصرفاتى نحوك زائفة أيضا · ولا أســـتطيع أن أبوح لك بشىء الآن ! سيقتلنى هجرك ! حبيبتى ان حياتى بين يديك ! لقد

قلت بانك احببتنى ، فلعلك توافقين ·· وليتنى أموت وانا معك !

فتاثرت كاتى وانزعجت تماما ، وانحنت لتنهض به وهى تساله :

اوافق على ماذا ؟ ·· ان أبقى ؟ قل لى ماذا تعنى بحديثك ؟ .. اعترف لى بما يثقل قلبك · انك لم تتسبب فى ايذائى ، أليس كذلك ؟ انك لم تســـمح لأحد ان يؤذى أعز صديقة لك ؟

فصرخ بصعوبة :

ـ لكن ابى هددنى ، لا اجرؤ على قول الحقيقة !

ـ احتفظ بسرك اذن ، فانا لست خائفة !

وسمعت خطوات بين الزرع ، ثم رايت هيثكليف يقترب منا ·· وخاطبنى بود قائلا :

ـ انه لحدث ان أراك بالقرب من منزلى ، يا نيللى ·· كيف الحال فى المزرعة ؟

ثم اردف قائلا فى صوت منخفض :

– لقد سمعت أن ادجار يلفظ أنفاسه الأخيرة ، هل هذا صحيح ؟

– نعم صحيح ، ان سيدى يحتضر .

– ومتى سيكون ذلك ؟

– لا أدرى ..

واستمر فى قوله وهو ينظر الى الصغيرين :

– لأن هذا الغلام يريد هزيمتى . وسأشكر خاله ان فارق الحياة قبله .

فقلت :

– من الأفضل أن يكون هذا الغلام فى فراشه تحت اشراف طبيب بدلا من تجواله هنا .

فصرخ فيه :

– انهض يا لنتون ! ولا تتسلوى على الأرض .. انهض !

غاص لنتون ثانية فى خوف عاجز ، عندما نظر اليه أبوه ٠٠ وحاول عدة مرات أن يطيعه ، فكانت قـــواه تخونه ٠ **وقال لاهثا :**

ـ سأنهض يا أبى ، لكن دعنى ٠٠ لقد قمت بما ترغبه منى ٠ آه يا كاتى ٠٠ كونى ٠٠ كونى بجانبى ، واعطينى يدك !

فقال والده :

ـ خذ يدى ، وقف على قدميـــك ٠ قـد تتخيلين يا آنسة كاتى أنى أعامله بقسوة ، لأثير هذا الخـــوف فيه ٠٠ أرجوك أن ترافقيه الى البيت ٠٠ انه يرتعد اذا لمسته ٠

لا أستطيع أن أذهب الى مرتفعات وذرينج ٠ ان والدى منعنى ٠٠ لنتـــون يا عزيزى ، ان والـدك لن يؤذيك ٠ لماذا أنت خائف هكذا ؟

فقال هيثكليف :

ـ قم اذن ، يجب أن نحترم تمسك كاتى بطاعتها لأبيها ٠٠ كن شجاعا وهيا بنا الى البيت ٠٠

وتقدم هيثكليف ليمسك بالغلام ، ولكن لنتون تراجع وتمسك بكاتي وتوسل اليها بشكل يائس أن تذهب معه . ولم ندرك كنه خوفه .

ووصلنا الى البيت ، فدخلت كاتي ووقفت أنتظر حتى تساعد الغلام المريض وتجلسه على كرسى ، متوقعة أن تخرج ثانية فى الحال ، لكن هيثكليف دفعنى لأدخل، وأغلق الباب من خلفى .

الفصل الثالث والأربعون

فى الحبس

قال هيثكليف :

ـ انى وحدى ، وفى حاجة الى رفقتكم ، وسوف نشرب الشاى سويا · لقد ذهب هيرتون مع البهائم الى الحقول ، وزيللا ويوسف فى أجازة ترويحية ·· يا آنسة كاتى ، هل تقبلين ما أملك ، رغم أن الهدية لا تستحق قبولك · انه لنتون ، خذى كرسيا واجلسى الى جانبه ·

تقدمت كاتى من هيثكليف وعيناها تومضان ، **وقالت له :**

ـ أنا لا أخافك ٠٠ اعطينى هذا المفتاح ٠٠ اننى لن آكل ولن أشرب فى بيتك حتى لو مت جوعا !

نظر هيثكليف اليها من الدهشة من جرأتها ، أو ربما ذكره صوتها وتعبيرها بالشخص الذى ورثت منه ذلك ٠ وكادت أن تنجح فى الاستيلاء على المفتاح من بين أصابعه لولا تشبثه به ٠٠ **وقال عندئذ :**

ـ كاترين لنتون ، ارجعى عن ذلك والا سأطرحك أرضا !

ولم تكترث كاتى لتحذيره وأمسكت بيده المغلقة المضمومة على المفتاح ٠٠ ولما وجـــــدت أن أظافرها لم تسعفها استخدمت أسنانها بحدة ٠ فرمانى هيثكليف بنظرة منعتنى عن التدخل للحظة ، ثم فتح أصـــابعه فجأة وأمسك بها ولطمها عدة لطمات على خديها ٠

فاندفعت نحوه فى هياج وأنا أقول :

ـ انك شيطان !

ودفعة منه فى صدرى أسكتتنى ، فأنا سمينة وأخذت ألهث ، فى الحال ، وفقدت التوازن من الضربة

ومن هياجي ، وسقطت على الأرض وأنا أحس بأن رئتي ستنفجران • وانتهى المنظر في دقيقتين • وتحررت كاتي ووضعت يديها على رأسها • وراحت المسكينة ترتعش ، فاستندت على المائدة وهي في حالة ارتباك تام • **وقال الرجل عديم القلب :**

ـ اني أعرف كيف أعاقب الأطفال ، كما ترين • اذهبي الى لنتون الآن • كما قلت لك وابكي على راحتك •• سوف أصبح والدك في الغد ـ والوالد الأوحد بعد أيام قليلة •• وستنالين الكثير من ذلك •• يمكنك تحمل الكثير !

ركضت كاتي الى بدلا من لنتون ، وركعت واضعة خدها الملتهب على ركبتي باكية بصوت عال • وانسحب ابن عمتها في الركن في هدوء الفأر ، بل يمكنني القول بأنه فرح لأن العقاب لم ينزل عليه • ونهض هيثكليف وأعد الشاي ، **وصبه وناولني فنجانا ، وقال :**

ـ أزيلي غضبك ، وساعدي دميتك ودميتي الشقية • وسأذهب لأبحث عن جيادكما •

وكان أول تفكير لنا عند مغادرته هو كيف نهرب • كان باب المطبخ مغلقا باحكام ، اما النوافذ فكانت ضيقة جدا حتى على جسم كاتى الصغير •

وصرخت عندما ادركت اننا مسجونتان :

– يا سيد لنتون • انك تعرف ما ينوى عليــه والدك الشرير ، وعليك أن تخبرنا بكل شيء •

وقالت كاتى :

– أجل يا لنتون • لقد حضرت الى هنا من أجلك !

فاجاب :

– اعطينى فنجانا من الشاى ، اننى أشـــعر بالعطش • ساخبرك بكل شيء •• نيللى ! اذهبى بعيدا عنى • لا أحبك أن تقفى امامى هكذا ! وأنت يا كاتى ان دموعك تتساقط فى فنجانى ! اننى لن أشربه • اعطينى فنجانا آخر •

دفعت كاتي بفنجان آخر له ، ومسحت دموعها ٠ وأحسست بالاشمئزاز من هدوء الغلام البائس الذى لم يعد فى حالة الرعب التى كان فيها ٠ **وبعد احتسائه قليلا من الشاى قال :**

ـ ان والدى يرغب فى زواجنا ٠٠ ويخشى موتى اذا انتظرنا ، لذلك فعلينا أن نتزوج فى الصـــباح ، وعليك أن تبقى هنا الليلة ٠

فقلت :

ـ تتزوجا ؟ ولماذا تعتقد أن فتاة جميلة مثلها **توافق** على الزواج من قرد مثلك ؟ ٠

فنظرت كاتي حولها ببطء **ثم قالت :**

ـ نبقى هنا طول الليــل ، نيللى ، سوف أحرق الباب ، **وأهرب !**

فانزعج لنتون ثانية خوفا على نفسه **وقال لكاتى :**

ـ ألا تتزوجينى وتنقذينى ؟ آه يا كاتى الحبيبة ٠٠

لا تذهبى وتتركينى ! ارضـــخى لرغبـــة والدى ٠ أرجوك !

وهنا عاد هيثكليف ، وقال :

ـ لقد سرح جواداكما فى الحقول ٠٠ وأنت يالنتون اذهب الى غرفتك ٠ ان زيللا لن تأتى الليلة ، وعليـــك أن تغير ملابسك بنفسك ٠

وفتح الباب ، فاندفع ابنه خارجا مثل جرو مذعور ، ثم أغلق الباب باحكام ٠٠ واقترب هيثكليف من المدفأة حيث كنا واقفين فى صمت ٠ ونظرت كاتى اليه ورفعت يدها الى خدها ، فراح هيثكليف ينظر اليها بشراســـة وقال :

ـ آه ٠٠ انك لا تخافين منى ؟

ـ بالعكس ٠٠ اننى خائفة الآن ٠ لأننى اذا بقيت فسيحزن أبى حزنا قد يقضى عليـــه ، دعنى أذهب ، وأعدك بأننى سأتزوج لنتون ، فوالدى يرغب فى ذلك ، وأنا أحبه ، فلمـــاذا ترغمنى على شىء أرغب القيام به بمحض ارادتى ٠

فصرخت :

ـ دعيه يرغمك ، ولكن هناك قانون فى البـلاد والحمد لله ، رغم أننا نعيش فى منطقة نائية ٠

فقال الرجل الشرير :

ـ اسكتى ! لا أريد أن أسمع منك أى كلام ! وأنت يا كاتى ، انه ليمتعنى جدا أن أرى والدك حزينا ٠ أما بخصوص وعدك بالزواج من لنتون ، فلن تغادرى هذا المكان حتى يمكن ذلك ٠

فقالت له كاتى وهى تبكى :

ـ اذن ، دع نيللى تذهب ، لتطمئن والدى عنى ، وتخبره اننى فى أمان ٠ نيللى ، انه سيعتقد بأننـــا ضللنا الطريق ٠ ماذا سنفعل ؟

فأجاب هيثكليف :

ـ كلا ! بل سيعتقد بأنك تعبت من خدمته وهربت لتروحى عن نفسك قليلا ٠ يجب أن تعترفى بأنك دخلت

بيتي بمحض ارادتك متغاضية عن رغبات والدك · ابكي! فبكاؤك لا يهمني !

ورماها هيثكليف بنظرة ازدراء · وكنت سأخبره برأيي في سلوكه ، ولكن أخرسني تهديده بأن يحبسني بمفردي اذا تفوهت بكلمة واحدة ·

خيم الظلام ، وسمعنا أصواتا عند البوابة ، فأسرع مضيفنا خارجا في الحال · كان سريع الفهم والتصرف ، كنا عكسه تماما · استمر الحديث على البوابة لدقائق عاد بعدها بمفرده ·

فقلت لكاتي :

– أعتقد أنه هيرتون ·· من يدري عله يساعدك ·

وقال هيثكليف :

– ثلاثة من خدم مزرعتكم قد حضروا للبحث عنكم · كان يجب أن تفتحا النافذة وتستنجدان بهم ·

وعندما علمنا بهذه الفرصة التي فقدناها لم نستطع

التحكم فى حزننا • وتركنا نبكى حتى الساعة التاسعة، عندما أمرنا أن نصعد لننام فى غرفة زيللا •

ولم يغمض لنا جفن ، اذ جلست كاتى بجانب النافذة الضيقة تراقب الصباح • وجلست أنا أؤنب نفسى على فشلى فى واجبى •

وفى السابعة صباحا نادى هيثكليف على كاتى ، وقمت لأتبعها ، لكنه أغلق على الباب بالمفتاح قائلا :

ـ اصبرى ، سأرسل لك الافطار •

وتركنى أصرخ دون جدوى • وبعد ثلاث ساعات تقريبا سمعت صوت خطوات • ودخل هيرتون حاملا طعاما يكفينى طول اليوم • فقلت له :

ـ انتظر دقيقة واحدة !

فقال وهو يغادر الغرفة :

ـ كلا •

وظللت مسجونة هناك أربعة أيام وخمس ليـــال لم أر خلالها أحدا سوى هيرتون مرة كل صباح لاحضار الطعام ، وكان لا يستجيب لأية محاولة منى لاستدرار عطفه ..

الفصل الرابع والأربعون

السيد جرين يتأخر

وفى صباح اليوم الخامس ، أو ربما بعد الظهر ، اقتربت خطـــوات مختلفـــة ٠٠ ودخلت زيللا الغرفة **وصرخت قائلة :**

ـ آه يا عزيزتى مسز دين ٠٠ ان النـــاس فى جيمرتون يقولون أنك غرقت فى أحد المســتنقعات مع الآنسة كاتى ، لكن سيدى هيثكليف أخبرنى بأنه تم العثور عليك وجعلك تقيمين هنا ٠ وكم بقيت فى الماء ؟ ٠٠ أرجو أن تكون حالتك قد تحسنت ٠٠ هل أنقذك سيدى يا مسز دين ؟!

ـ ان سيدك لوغد لئيم !

ـ ماذا تعنين ؟ ٠٠ انها ليست قصة ٠ انهـــا ما يقوله أهل القرية ٠ وعندما سمع بها سيدى ابتسم وقال ان مياه المستنقع قد دخلت فى رأسك وجعلتك تقومين بتصرفات غريبة ٠٠ ولذلك احتجزك فى أمان حتى تشفين ٠ وأخبرنى بأن أطلق سراحك ، وأخبرك بأن تذهبى الى المزرعة فى الحال وتحملى رسالة منه بأن السيدة الصغيرة سوف تتبعك فى الوقت المناســـب لحضور جنازة سيدك ٠

فصرخت :

ـ هل مات السيد ادجار ؟ زيللا ! تكلمى !

ـ كلا ٠٠ كلا ٠٠ اجلسى ٠٠ استريحى لحظة ٠٠ لازلت تحسين بالاعياء من جراء مياه المستنقع ، مسكينة! انه لم يمت ٠ والطبيب يقول انه سيعيش يوما آخر ٠ لقد قابلته فى الطريق ، وسألته بنفسى ٠

جمعت حاجياتى وأسرعت بالهبوط ، ولم أجد من يخبرنى عن مكان كاتى ٠ كانت الشمس تغمر المكان وكان الباب مفتوحا على مصراعيه ٠ وترددت فى الخروج،

عندما سمعت سعالا خفيفا ، فالتفت لأرى لنتون راقدا على مقعده يمتص مصاصة من الحلوى ، **فسالته :**

ـ أين الآنسة كاتى ؟

فاستمر فى المص كالطفل الرضيع · **فسألته ثانية :**

ـ هل ذهبت ؟

ـ لا ، انها فى الطابق العلوى ، ولن نسمح لها بالذهاب !

فقلت :

ـ لن تسمح لها ! أرشدنى الى حجرتها فورا !

فاجاب :

ـ طلب منى أبى أن لا أكون لطيفا معها · اذ أنها أصبحت زوجتى ، ومن العار أن تتركنى ·· انه يقول بأنها تريدنى أن أموت لتحصل على كل المال ، لكنها لن تحصل عليه ، ولن تذهب الى بيتها ·· مهما بكت ··

وعاد الى مصاصته مرة أخرى واغلق عينيه .

– هل نسيت محبتها وما قامت به نحـــوك فى الشتاء الماضى ، عندما أعلنت حبك لها ، وأخذت تحضر لك الكتب وتغنى لك وتأتى لزيارتك أثناء مرضك رغم الطقس السىء ؟ .. والآن تصدق ما يقـــوله والدك ، وتنضم اليه ضدها ؟

فانتزع الحلوى من بين شفتيه وقال بشكل منفر :

– لا أستطيع الجلوس معها ، ليس بوســـعى أن أحتمل صراخهـــا وبكاءها فهى تئن طوال الليـــل ، ولا أستطيع النوم !

– هل السيد هيثكليف فى الخارج ؟

– انه فى الفناء ، يتحدث مع الطبيب الذى يقول بأن خالى يحتضر . اننى سعيد بهذا النبـــأ ، لأننى سأكون سيد المزرعة من بعده .. وكاتى تتحدث عنهـــا دائما على أنها بيتها ! انها ملكى : أبى يقول بأن كل ما لديها ، فهو ملكى . لقد عرضت على كل كتبها الحلوة،

وطيورها الجميلة ، وجوادها ، اذا حصلت على مفتاح حجرتنا وتركتها تخرج ، ولكننى قلت لها بأنها لا تملك شيئا لتعطيه لى ، فكل ما تعرضه على أصبح ملكى ٠٠ عندئذ أخذت تصرخ وأخذت صورة صغيرة من رقبتها ، بل صورتين فى علبة ذهبية : أمها على جانب وخالها على الجانب الآخر ، عندما كانا صغيرين ٠ فقلت لها انهما ملكى أيضا ، وحاولت أن أحصل عليهما منها ٠ ولكن السخيفة لكزتنى بشدة ، وعندما سمعت قدوم أبى خافت وقسمت العلبة قسمين وأعطتنى صورة والدتها وحاولت أن تخفى الأخرى ، ولكن أبى أخذ الصورة منى ، وسحق الأخرى تحت قدمه ، وضرب كاتى حتى طرحها أرضا ٠

ـ وهل سررت ؟

ـ لم أنظر ٠٠ انى أغلق عينى كلما يضرب أبى أى شىء ٠٠ واقد ضربها بشدة ٠ لكنها تستحق العقاب لأنها لكزتنى ٠ وعندما ذهب أبى لاحظت جرحا فى خدها ، وقامت بجمع حطام الصورة ، ولم تتحدث معى منذ ذلك الحين ٠ ربما لا تستطيع الكلام بسبب الألم ٠

– هل باستطاعتك الحصول على المفتاح ؟

– نعم ، عندما أكون فى الطابق العلوى ، أما الآن فلا أستطيع الصعود ٠

– فى أى غرفة هى ؟

– آه ، لن أخبرك ! فهذا سر من أسرارنا ٠

وأدار وجهه ، وأغلق عينيه ثانية ٠ ففكرت بانه من الأفضل أن أغادر مسرعة دون أن أرى هيثكليف ، وأحضر نجدة من المزرعة لسيدتى الصغيرة ٠ وعند وصولى الى البيت اندهش الخدم لرؤيتى وفرحوا لسماعهم بنجاة كاتى ٠ وتوجهت الى غرفة ادجار لنتون ٠ وكم وجدته متغيرا ، وكان يفكر فى كاتى ويتمتم باسمها ٠ فهمست له :

– ان كاتى بصحة جيدة وستأتى الى هنا ربما الليلة ٠

فقام من فراشه جالسا ، ونظر بلهفة حوله ثم رقد ثانية فاقد الوعى ٠

وعندما استرد وعيه أخبرته بحبسنا وسببه ، ولم أشوه صورة لنتون قدر اســـتطاعتى كما أنى لم أصف له كل تصرفات أبيه القاسية ٠

فشعر بان من أحد أهداف عدوه الحصـــول على ماله ، وكذلك أرضه وبيته لابنه أو بالأحرى لنفسه ٠٠ ومع ذلك فلم يستطع سيدى أن يفهم لمـــاذا لم ينتظر موته ، وليست لديه فكرة عن حقيقة مرض ابن أخته ٠ ولكنه شعر بانه من الأفضل أن يعدل وصيته ٠ فبدلا من ترك مال كاتى بين يديها ، عزم على أن يأتمن بعض الأشخاص الشرفاء عليه ، لاستخدامها أثناء حياتهـــا ولأولادها ، اذا أنجبت ، بعد وفاتها ٠ وبذلك لن يؤول المال الى هيثكليف ، اذا مات لنتون ٠

وأرسلت فى استدعاء المحامى ، كما أرسلت أربعة رجال مسلحين الى المرتفعات للعمل على اعادة كاتى ٠ وبعد وقت طويل عاد الأول ليقول أن السيد جرين غادر بيته ، حيث لديه بعض الأشغال فى القرية ولكنه سيأتى للمزرعة قبل الصباح ٠ وعاد الرجال الأربعـــة بدون

سيدتى ، قائلين أنها مريضة وليس بامكانها مغــادرة غرفتها ٠٠ فقمت بتوبيخ هؤلاء الأغبياء لتصديقهم مثل هذه القصة ، وقررت أن أذهب بنفسى فى وضح النهــار مع مجموعة من الرجال لاحضارها ٠

ولحسن الحظ لم أقم بهذه الرحلة ٠ ففى الساعة الثالثة صباحا ، سمعت طرقات على الباب ، فاعتقدت أنه المحامى وهبطت لأفتح له ٠ فاذا بكاتى حبيبتى الحلوة ترتمى على وتعانقنى وهى تبكى قائلة :

– نيللى ! نيللى ! هل والدى بخير ؟

ولم أتجمل أن أحضر لقاءهما ، ودخلت عليهمــا بعد ربع ساعة فرأيتهما فى صمت يائس ٠ لقد مات وهو يقبلها على خدها ٠ وظلت كاتى بجــانب فراش الموت ، الى أن أجبرتها على أن تتركه ، لتأخذ قسطا من الراحــة ، ثم ظهر المحامى متأخرا عن مــوعده ٠ لقد مر على مرتفعات وذرينج وباع نفسه لهيثكليف ، وكان هذا هو سبب تأخره ٠٠ !!

وأخذ يأمر وينهى جميـــع من فى البيت ٠ وقام بطرد جميع الخدم والعاملين فيما عداى وأسرع بتشييع الجنازة ٠٠ وسمح لكاتى ، زوجة لنتون هيثكليف حاليا أن تبقى بالمزرعة حتى يرقد والدها فى مثـــواه الأخير بجوار والدتها عند مشارف منطقة المستنقعات ٠٠

الفصل الخامس والأربعون

لقد أقلقتنى بدون شفقة

وفى مســـاء اليوم التالى للجنازة جلســت مــع سيدتى الصغيرة فى المكتبة ، وراحت تحدثنى عن طريقة هربها من المرتفعات بعد أن حرضت لنتون لمساعدتها . واتفقنا على أن أفضل ما يمكن أن يحدث لها ، هو أن نوفق فى أن تعيش فى المزرعة ، على الأقل خـــلال مدة حياته ، ويأتى هو ليلتحق بها هنا ، وأظل أنا كمدبرة المنزل ، عندئذ اندفعت احدى الخدم التى لم تغادر مع المطرودين بعد وقالت أن هيثكليف قادم عبر الفناء .

ودخل دون استئذان ، فهو السيد ، وسار دون

أن يتفوه بكلمة · كانت نفس الغرفة التى جاء اليها ، كضيف · من قبل ثمانية عشرة عاما · لقد غير الزمن من مظهره قليلا · كان هو نفسه ، الا أنه يتحكم أكثر فى تعبيرات وجهه الأسمر ، وأصـــبح أكثر وزنا ·· نهضت كاتى ، وفكرت فى الهرب عندما رأته ·

فقال وهو يمسك بذراعها :

– قفى · لا فرار بعد الآن ! .. لقد جئت لمرافقتك الى البيت ، وآمل أن تكونى ابنة مطيعة ، ولا تشـــجعى ابنى على مزيد من العصيان · فلقـــد عانى من ذلك كثيرا ·

فقلت له متوسلة :

– لماذا لا تدع كاتى ، لتعيش مع السيد لنتــون هنا ؟ ·

– انى سأعرض هذه المزرعة للايجار ، كما انى أريد أولادى معى ·· بالاضافة الى أن هذه الفتاة مدينة

لى بخدماتها مقابل المأكل والمأوى ٠ ولن أتركها تعيش حياة الكسل والدعة ٠ أسرعى واستعدى ٠

ـ سأفعل ٠٠ فلنتون هو كل ما لدى لأحبه فى الدنيا ٠ ورغم أنك قمت بما تقدر عليه لتجعلنا نكره بعضنا ، الا أنك لم تنجح !

ـ لست أنا الذى سأجعله بغيضا لديك ٠٠ بل هو نفسه ٠٠ انه يشعر بالمرارة ازاء ذهابك عنه ، لقد سمعته يرسم صورة جميلة لما قد يقوم به لو كانت صحته أفضل ٠

ـ أعرف أن له طبيعة سيئة ، فهو ابنك ٠ أما طبيعتى فهى أفضل لأنها تسامح ٠ وأعرف أنه يحبنى ولذلك السبب أحبه ٠ ولكنك يا سيد هيثكليف ليس لديك من يحبك ٠ انك بائس ، أليس كذلك ؟

فقال حموها :

ـ ستندمين بعد قليل اذا وقفت هنا أكثر من ذلك ٠ اذهبى واحضرى حاجياتك ٠٠ !

فذهبت وكلها ازدراء ، وفى غيابها ، رجوت من هيثكليف أن أحل محل زيللا بالمرتفعات ، لكنـــه لم يوافق وطلب منى الصمت ، ثم راح يقلب نظره ، لأول مرة ، فى الغرفة وفى الصور ، وبعد أن تفحص الصورة الزيتية الرائعة لزوجة ادجار **قال** :

ـ سآخذ هذه الى البيت ، لا لأننى أحتاجهـــا ، ولكن ...

ثم التفت بسرعة الى المدفأة وبابتسامة غريبـــة **واستمر قائلا** :

ـ سأخبرك بما فعلته بالأمس ! لقـــد طلبت من الرجـل الذى حفر مقبـرة ادجـار لنتونَ أن يزيـح التراب عن غطاء تابوتهـا ، وفتحته . ورأيت وجهها ولكن حفار القبور قال انه سيتغير اذا هب عليه الهواء ، وتحركت من مكانى بعد جهد كبير ، ولكنى هشمت أحد جوانب التابوت وغطيته .. وأجزلت العطاء لحفار القبور

ليسحب تابوتها بعيدا عن تابوت زوجها عليه اللعنة ٠٠ وطلبت من الرجل أن يضع تابوتى أنا ـ بعد أن أموت ـ الى جوارها ٠٠

فصرخت فيه قائلة :

ـ انك فظيع جدا يا سيد هيثكليف ٠ ألم تخجل من اقلاق الموتى ؟

ـ اننى لم أقلق أحدا ، وأرحت نفسى قليـــلا ٠ أقلقتها ؟ ٠٠ لا ! لقد أقلقتنى ليل نهار مدة ثمانية عشر عاما ٠٠ بدون توقف ٠٠ بدون شفقة ٠٠ حتى الليلة الماضية ٠٠ ففى الليلة الماضية كنت فى سلام ٠ حلمت بأنى نائم النومة الأخيرة وقلبى توقف مع قلبها وخدى تجمد على خدها !

واستمر قائلا :

ـ لقد بدأ هذا الشعور الغريب بطريقة فريدة ٠

أنت تعلمين أنني كنت هائجا بعد موتها ، وأخذت أدعو دائما يوما وراء يوم أن تعود الى ٠٠ روحها ٠٠ اننى أؤمن تماما بالأرواح ، وعلى يقين أكيد بأن الأرواح قادرة على الحضور ، بل هي موجودة بالفعل بيننا ! ٠٠ وفى يوم وفاتها ، هطلت الثلوج ٠ وفى المساء ذهبت الى فناء الكنيسة حيث المقابر ، وكان البرد لاسعا ، **وقلت لنفسى :**

ـ سأضمها بين ذراعى ثانية ! أخذت معولا وبدأت الحفر ٠٠ وصلت الى التابوت ٠٠ وكنت على وشك فتحه ، عندما بدا لى اننى سمعت تنهيدة من فوق التابوت ، فاقتربت من المقبرة وانحنيت ، وجال فى خاطرى ، « لو أمكننى رفع التابوت ، أود لو غطونا سويا وأهالوا علينا التراب ٠ » ٠ وكانت هناك تنهيدة أخرى بالقرب من أذنى ، وشعرت بأنفاسها الدافئة ٠ كنت واثقا من عدم وجود أحياء من لحم ودم بالقرب منى ، ولكنى شعرت بكل تاكيد أن كاتى كانت هناك ٠٠ ليست تحت التراب بل فوقه ٠ عندئذ غمرتى

احساس بارتياح مفاجىء أفعم قلبي وكل جزء من كيانى ·· فكانت راحتى لاتوصف ·· وكانت حاضرة معى وأنا أهيل التراب ثانية على القبر ، بل وقادتنى الى البيت · قد تضحكين ·· لكنى كنت على يقين ، أن فى استطاعتى أن أراها هناك ! ·· كان الباب مغلقـــا ·· اذ كان هندلى الأحمق وزوجتى يعتقدان بأننى دخلت · أذكر أننى وقفت لأركله ثم أسرعت الى الطابق العلوى ·· ونظرت حولى نافد الصبر ·· فشعرت بها بجانبى ·· كدت أستطيع رؤيتها تقريبا ولكنى لم أستطع ! ·· ومنذ ذلك الحين وأنا أقاسى من هذا العذاب المرير ! واذا جلست فى البيت كان يبدو لى لو خرجت لمقابلتها لقابلتها ·· لابد أنها فى مكان ما بالمرتفعات ·· كنت على يقين ! وعندما نمت فى غرفتها ، لحظة ما أغمضت عينى كانت اما تقف خارج النافذة أو تدخـــل الغرفة أو حتى تسند رأسها الغالى على نفس الوسادة ، كما كانت تفعل وهى طفلة · واعتدت أن أفتح عينى مئات المرات كل ليلة ليخيب ظنى دائما ! ومنذ أن رأيتهـــا وأنا فى سلام ·· نوعا ما ·· أنها طريقة غريبة للقتل

ببطء ، مع شبح الأمل ، عبر ثمانية عشرة عاما !

توقف هيثكليف عن حديثه ومسح جبهته وكانت عيناه مثبتين على المدفأة لم يكن قاطب الجبين كالمعتاد ، فخفف ذلك من قسوة تعبيراته وصبغ عليه بنظرة قلقة غريبة ٠ كان وكأنه يخاطبني ، بينما لذت أنا بالصمت التام ٠ وبعد فترة وجيزة ، نظر الى الصورة مرة أخرى ، وانزلها وأسندها على الأريكة ٠

ودخلت كاتي اثناء ذلك ، وأعلنت استعدادها لمرافقته ، وطلبت تجهيز جوادها ٠

فقال هيثكليف لى :

ـ ارسلى الصورة غدا !

ثم استدار نحوها واضاف قائلا :

ـ لا داعى لجوادك ٠ فقدماك ستحملانك ، هيا !

فهمست سيدتى الصغيرة الغالية :

– وداعا يانيللى ٠٠ تعالى لترينى !

فقال أبوها الجديد :

– احذرى القيام بذلك !

وتأبط ذراع كاتى ، وانصرفا مسرعين .

الفصل السادس والأربعون

معتزة بنفسها كالأميرة

كانت الآنسة كاتى قد تزوجت فى الصيف الماضى فقط . وقمت بزيارة المرتفعات عدة مرات . ولكنى لم أرها منذ أن ذهبت الى هناك . لم يكن يسمح لى يوسف بالدخول ، قائلا بأنها ليست على مايرام وأن السيد غير موجود . وأخبرتنى زيللا بالطريقة التى يعيشون بها ، وهى تعتقد أن كاتى متكبرة ، لذلك لم تسترح اليها .. وقالت :

ـ أول شىء عملته عند وصولها أن ركضت الى الطابق العلوى بدون حتى القاء تحية المســـاء لى أنا ويوسف . وأغلقت الباب وراءها وبقيت حتى الصباح .

ثم دخلت أثناء تناول هيثكليف طعام الافطار مع هيرتون وطلبت استدعاء الطبيب حيث أن ابن عمتهـــا مريض جدا ، **فأجابها هيثكليف :**

ـ نحن نعلم ذلك ، ولا أحد هنا يعبأ بما يحـــدث له ٠ أما اذا كنت تعبأين فلتقومى بدور الممرضة ، والا فاغلقى عليه الباب واتركيه ٠

ثم جاءت لى فقلت لها لقد أخذت نصيبى مع هذا الغلام ، ولدى أعمال كثيرة أقوم بها ، أما هى فعليها أن تقوم بخدمته ٠ ولا أدرى كيف سارت الأمور ، لكنه كان يئن ليل نهار وهى لم تنل الا القليـــل من الراحة مع شحوب وجهها وثقل عينيها ٠ وكانت تأتى الى المطبخ أحيانا وكأنها تتوسل المساعدة ، ولكنى لم أســتطع مطلقا أن أعصى أوامر السيد ، يا نيللى ، وهذا ليس من شأنى ٠٠ كنت أشفق عليها بالتأكيد ، ولكننى لم أكن أريد أن أفقد وظيفتى ! وأخيرا ، ذات ليلة ، حضرت بجسارة **ودخلت حجرتى وهى تقول :**

– أخبرني السيد هيثكليف بأن ابنه يحتضر ·· انهضي في الحال وأخبريه ·

وتركتني ، ولم أستجب لطلبها ، وقلت لنفسي « لابد أنها مخطئة » ورقدت ، ولكني استيقظت بعـد قليل عندما سمعت صوت الجرس يقرع من غرفة لنتون. وأمرني هيثكليف أن أستطلع عن السبب ، فأبلغتـــه رسالة كاتي ·

وبعد دقائق قليلة أتى بشمعة مشتعلة وتوجه الى غرفتهما ·· كانت كاتي تجلس بجوار الفراش ، واقترب حموها بالشمعة المشتعلة من وجة لنتون ، ولمسه ·· كان قد فارق الحياة ، ثم استدار نحو كاتي وقال :

– والآن ، كيف تشعرين ؟

– أنه في أمان ، وأنا حرة ، ولكنـــك تركتني أصارع طويلا مع الموت بمفردي ، حتى اني أصبحت لا أشعر ولا أرى الا الموت فقط ·

وقدمت لها قليلا من النبيذ ، واستيقظ هيرتون

ويوسف بسبب الضجة ودخلا ٠٠ كان يوسف فرحا لرحيل الغلام ، على ما أظن ، وانزعج هيرتون بعض الشيء ، رغم أنه كان مشغولا بالحملقة فى كاتى ٠

وفى الصباح قالت بأنها مريضة وبقيت فى الطابق العلوى لمدة أسبوعين ٠

كانت زيللا تزورها مرتين فى اليوم ٠ وكانت تود أن تتودد لها أكثر لكن كاتى كانت ترفض عطفها المتزايد بكبرياء ٠

وزارها هيثكليف ليطلعها على وصية لنتون ٠ لقد كتب جميع ممتلكاته وكذلك ما تملكه هى لأبيه ٠ لقد تم تحريض الغلام أو تهديده للقيام بهذا العمل أثناء غيابها عند وفاة خاله ٠ ولم يستطع أن يتدخل فى الأرض ، لكونه تحت السن القانونى ، واحتفظ هيثكليف بها فى حيازة الزوجة وحيازته هو أيضا ٠ وأعتقد طبقا للقانون ، وعلى كل فكاتى ليس لها أصدقاء ولا مال ، فلا تستطيع أن تزعجه فى ممتلكاته ٠

واستمرت زيللا قائلة :

ـ ولم يقترب أحد من بابها سـوای ۰ وأول مرة نزلت فيها كانت بعد ظهر يوم من أيام الآحاد ، حيث قالت أنها لم تعد تحتمل البرد فى الطابق العـلوى ۰ وكان هيثكليف قد ذهب الى مزرعة تراش كروس وكان يوسف فى الكنيسة ، وأخبرت هيرتون أن كاتى ابنة عمته تريد أن تجلس معنا ۰ فاحمر وجهـه ، وألقى ببصره على يديه وملابسه ورأيته يريد أن يبدو محترما ، فضحكت وعرضت أن أساعده فى ترتيب مظهره ، وقبل فى النهاية ۰

ودخلت كاتى ، باردة كالثـلج ، تسـير معتزة كالأميرة ۰ ونهضت وقدمت لها مكانى على الكرسى الوثير ذى المساند ۰ كلا ، اذ أشـاحت بوجهها ازاء أدبى ۰ ونهض هيرتون أيضا وطلب منهـا أن تأتى وتجلس بالقرب من المدفأة ۰ فأحضرت كرسيا لنفسها ووضـعته على مسافة من كلينا ۰۰

وجلست الى أن سرى الدفء فى أوصالها ، فبدأت

تنظر حولها ، فوجدت عددا من الكتب فوق أحد الرفوف العالية ، وعندما لاحظ هيرتون عدم قدرتها على الوصول الى أحدها ، استجمع شجاعته أخيرا ليقدم مساعدته ·

لم تشكره ولكنها قبلت مساعدته ، وكان جسورا بما فيه الكفاية ليقف خلفها أثناء تفحصها للكتاب ، بل وأخذ يشير لها لما يحبه فى بعض الصور القديمة · ولم يتأثر من طريقتها الجافة التى انتزعت بها الصفحة من بين أصابعه · ورضى مكتفيا بأن ينظر اليها بدلا من الكتاب · وبالتدريج تركز انتباهه على دراسة شعرها الحريرى الكثيف · لم يكن يرى وجهها ولا هى أيضا ، وكطفل صغير انتقل من الحملقة الى اللمس · فوضع يده على ضفيرة من شعرها ومر بها برقة ، وكأنها طائر من الطيور التى اعتاد أن يذبحها بالسكين · فاســـتدارت نحوه فى غضب قائلة :

– اذهب من هنا حالا ! كيف تجرؤ على لمسى ! أنا لا أحتملك !

ابتعد هيرتون وهو يبدو كالغبى · وجلس فى

هدوء . أما هى فواصلت التقليب فى الكتب . واخيرا جاء نحوى وهمس قائلا :

ـ قولى لها أن تقرأ لنا شيئا يا زيللا .. فانا أحب سماع صوتها .

فقلت لها على الفور :

ـ ان السيد هيرتون يرغب الاستماع لقراءتك ، وسيكون ممتنا لك !

فنظرت غاضبة وقالت :

ـ ليكن مفهوما لكم جميعا أننى ارفض اى مظهر من مظاهر العطف ! فعندما كنت مستعدة لأضحى بحياتى مقابل كلمة عطف واحدة منكم ، كنتم تتجنبونى . لقد اضطررت للنزول الى هنا بسبب البرد ، لا لكى امتعكم أو استمتع برفقتكم !

فقال هيرتون :

ـ لكنى عرضت أكثر من مرة وطلبت .. وطلبت

من السيد هيثكليف أن يسمح لى بمساعدتك فى خدمة لنتون عندما كان مريضا ...

فقالت سيدتى :

ـ اسكت ! سأخرج من الغرفة حتى لا أسمع صوتك البغيض .

واستمر الطقس باردا ، واضطرت لذلك أن ترافقنا أكثر وأكثر . ولكن منذ ذلك الحين أصبحت لا أتودد اليها .

وعند سماعى الى هذا السرد من زيللا ، قررت أن أترك وظيفتى وآخذ بيتا صغيرا وادعو كاتى للعيش معى ، لكن السيد هيثكليف لم يسمح بذلك ، ولا أجد أى علاج الا اذا تزوجت ثانية .

وهذه يا سيد لوكوود هى الحالة الراهنة من الأمور فى مرتفعات وذرينج .

فاصــل

تغير العائلة

(سبتمبر ١٨٠٢)

يرويها السيد لوكوود

الفصل السابع والأربعون

زيارتى الثانية للمرتفعات

وفى الحال بعد أن عادت لى صحتى العام الماضى ، غادرت مزرعة تراش كروس ، وعدت الى لندن · اذ لم تناسبنى العزلة ولا هذه المنطقة القفر ، وبسرعة نسيت كل شىء عن فترة اقامتى هناك ·

ولكنى ، فى شهر سبتمبر الحالى ، دعيت لحضور موسم الصيد فى الشـــمال · وفى طريقى الى بيت صديقى صاحب الدعوة ، وجدت نفسى بدون توقع على

بعد خمسة عشر ميلا من جيمرتون ، فتولتنى رغبـــة مفاجئة لزيارة مزرعة تراش كروس ٠

وخطرت لى بأن أمضى الليلة تحت سقف البيت الذى استأجرته ، بدلا من الفندق ٠ بالاضـــافة الى الاستغناء عن يوم بسهولة لانهاء الموضوعات المعلقة مع صـاحب البيت ، حيـث أننى قد أنذرته بعدم تجديد الايجار عند انتهاء سنه الايجار المتفق عليها فى نهاية شهر أكتوبر القادم ٠

وصلت الى فناء المزرعة ، فرأيت امرأة عجـــوزا تجلس فوق سلالم البيت ، فسألتها :

ـ هل السيدة دين بالداخل ؟

فأجابت قائلة :

ـ السيدة دين ؟ كلا ! انها لا تعيش هنا ٠ أنها تعيش فى المرتفعات الآن ٠

طلبت منها أن تجهز لى غرفة لأرتاح فيها لليـلة واحدة ، وتركت المكان وتوجهت نحو الطريق الحجرى

المؤدى الى بيت السيد هيتكليف ، وكانت الشمس على وشك المغيب ٠٠

وفى هذه المرة لم يكن على أن أفك سلسلة البوابة ولا الطرق عليها ٠ وكانت رائحة حلوة لزهور الحديقة تعبق الجو ٠ وكانت الأبواب والنوافذ مفتوحة ، فأمكننى رؤية وسماع اثنين من أهل البيت وهمـــا جالسين فى الداخل ٠

صوت فى حلاوة رنين الجرس الفضى ، كان يأمر شخصا آخر ليقرأ بعض الجمل بشكل صحيح ٠ وبدأ القراءة صوت خشن ٠ وكان المتحدث شـــابا يرتدى ملابس محترمة ، ويجلس وأمامه كتاب على المـــائدة ٠ وكان وجهه الوسيم يشع بالفرح، وعيناه تتجولان بصبر نافد من صفحة الكتاب الى يد بيضاء صغيرة على كتفه ، تقف صاحبتها خلفه ، وخصلات شـــعرها اللامع فاتح اللون يلامس شعره البنى من حين لآخر ، كلما انحنت لتفحص دراساته ٠ ومن حسن الحظ أنه لم يكن يستطيع رؤية وجهها الفاتن ، والا لما استطاع أن يتابع بهـــذا الثبات ٠

وانتهى الدرس بعد تصحيح بعض الأخطاء ، ولكن التلميذ طالب بمكافأة ، فتلقى بعض قبلات ردها بكرم .. ثم خرجت كاتى وهيرتون ، وهما من كنت أراقبهما ، ووقفا عند الباب ، ومن حديثهما فهمت أنهما على وشك الذهاب فى جولة فى منطقة المستنقعات .. فبدى لى أن ظهورى لن يكون موضع ترحاب .

واستدرت باحثــا عن المطبخ ، الذى كان بابه مفتوحا أيضا . وكانت تجلس فيه صديقتى القــديمة نيللى دين تخيط وتغنى ، وكان صوت يوسف يقــاطع أغنيتها بين حين وآخر . ولما رآتنى ، **قفزت واقفة وهى تصرخ :**

– غير معقول . السيد لوكوود ! كيف فكرت فى العودة بدون ســـابق انذار ؟ كل شىء مقفول عليــه بالمزرعة .

فأجبت :

– اننى مسافر ثانية غدا ، ولكن كيف جئت الى هنا ؟

لقد تركت زيللا وظيفتها ، وطلبنى السيد هيثكليف لأحل محلها ، وذلك بعد ذهابك الى لندن ، يا سيدى ‥ هل أتيت من جيمرتون ماشيا ؟

ـ بل من المزرعة ، وأثناء تجهيزهم لمبيتى هناك ، أود أن أصفى أعمالى مع سيدك !

ـ أية أعمال يا سيدى ؟ لقد خرج !

ـ بخصوص الايجار ·

ـ آه ! اذن فلابد أن تصفيها مع كاتى أو بالأحرى معى · فهى لم تتعلم ادارة شئونها بعد ، وأنا أقوم بتمثيلها ، ولا يوجد شخص آخر ·

واستمرت قائلة :

ـ آه ! انك لم تسمع بوفاة هيثكليف ؟!

ـ هيثكليف مات ؟! متى ؟!

ـ منذ ثلاثة أشهر ‥ اجلس ، وسأخبرك عن كل شىء · لكن انتظر ! ‥ انك لم تأكل شيئا ، أليس كذلك ؟

ـ لا أريد شـــيئا • لقد طلبت منهم أن يجهزوا العشاء بالمزرعة • اجلسى ، اجلسى • لم أفكر اطـلاقا فى موته : هل تنتظرين عودتهما بعد قليل ؟! •• أقصد الفتى والفتاة •

ـ كلا ، انى أوبخها كل مساء على تجولهما لساعة متأخرة ، ولكنهما لا يستمعان لكلامى •

ثم أخبرتنى بالنهاية الغريبة لهيثكليف ••

الجزء الثــالث

ثمرة الانتقام عديمة المذاق

(فبراير - ابريل ١٨٠٢)

الفصل الثامن والأربعون

الا يمكن أن تتحدثى معى ؟

فى غضون أسبوعين من مغادرتك للمزرعة ياسيد لوكوود ، استدعونى للذهاب الى مرتفعــــات وذرينج فامتثلت وأنا مسرورة لأجل كاتى · وأول لقاء لى معها أزعجنى وملأنى بالأسي ، فلقد تغيرت كثيرا منذ انفصالنا. ولم يفسر السيد هيثكليف لماذا غير رأيه ازاء قدومى · وقال فقط انه تعب من رؤية كاتى ، لذلك يجب أن أعد الحجرة الصغيرة بالطابق العلوى ، التى كانت تخص لنتون وأحولها الى حجرة جلوس لى ، وأحتفظ بكاتى

معى · وبدا عليها الفرح لهذا الترتيب ، وعلى فـترات أحضرت سرا من المزرعة عددا من الكتب وأشياء أخرى ·

كانت كاتى فى البداية راضية الحال ، لـكنها أصبحت بعد فترة وجيزة قلقة ، لا يرضيها شىء · وكنت مضطرة لتركهـا فى كثير من الأوقـات ، فهى محظور عليها تجاوز الحديقة ، وعلى أن أشرف على المنزل، فكانت تشكو من الوحدة · وكانت تفضل الشجار مع يوسف فى المطبخ عن الجلوس وحيدة فى سلام · لم أكن أهتم بذلك ، لكن هيرتون كان موجودا فى المطبخ أيضا أغلب الأوقات · وبالرغم من أنهـا كانت فى البداية اما أن تنصرف عند قدومه أو تشـاركنى فى عملى غير ملتفتة له على الاطلاق · الا أنها غيرت سـلوكها بعـد فترة ، وأصبحت لا تستطيع أن تدعه وحيدا ، وتتحدث عنه ، وتعلق على كسله وغبائه ·· وتبدى استغرابها من نمط حياته وكيف يتحملها ، حتى أنها علقت ذات مرة قائلة :

ــ ان هيرتون مثل الكلب ، أليس كذلك يا نيللى ؟ أو مثل الحصان الذى يجر العربة ، يؤدى عمله ، ويأكل

طعامه ، وينام . هل تحلم يا هيرتون ؟ الا تستطيع أن تتحدث معى ؟

وتتطلع اليه ، ولكنه لا يفتح فمه ، ولا ينظر اليها ثانية ..

وقالت مرة أخرى :

ـ أننى أعرف لماذا لم يحدثنى هيرتون مطلقا وأنا فى المطبخ . انه يخشى أن أسخر منه .. وبدأ ذات مرة يعلم نفسه القراءة ولأننى سخرت منه قام باحراق كتبه وتوقفت عن التعلم . أليس بأحمق ؟

وقلت لها :

ـ ألم تكونى شقية ؟ أجيبينى !

فقالت :

ـ ربما كنت . لكنى لم أتوقعه بهذا الغبـاء .. هيرتون .. هيرتون ، اذا أعطيتك كتابا هــل تأخذه الآن ؟

ووضعت كتابا فى يده فما كان منه الا أن القـاه بعيدا وهددها ، **فقالت** :

– حسن ، سأضـع الكتـاب فى درج المكتب ، وسأذهب لأنام .

وهمست لى بأن أراقبه اذا كان سيأخذه عنـد ذهابها . ولم يقترب منه .. كنت ألاحظ أسفها ازاء جفائه المستمر وكأن ضميرها يؤنبها لاخافته من تحسين مستواه .

وحاولت بكل جهدها علاج ما تسـببت فيه من ايذاء .. وبينما كنت أقوم بعملى فى المطبخ كانت كثيرا ما تحضر بعض الكتب المسلية وتقرأها بصوت عال .. وعند وجود هيرتون كانت تتوقف عن المناقشة وتترك الكتاب مفتوحا .. وكررت ذلك عدة مرات ، لكنه كان مصرا على المقاومة ، واعتاد فى الطقس الرطب أن يدخن مع يوسف ، أما فى الأيام الصـحوة فكان يذهب للصيد .. وفى تلك الأثناء كانت كاتى تتنهد ، وتشكو وتطلب منى أن أتحدث معها ، وتقول بأن حياتها عديمة الجدوى ..

الفصل التاسع والأربعون

وأصبحا فى النهاية صديقين

أما السيد هيثكليف الذى آخذ يميل الى حياة العزلة ، قد منع هيرتون تقريبا من دخول حجرته • وبسبب حادث وقع له فى بداية شهر مارس اضطر الشاب الى البقاء فى البيت ، وفى المطبخ بالذات لعدة أيام • لقد انفجرت بندقيته اثناء وجوده فى التلال ، فأصيب فى ذراعه ونزف كمية كبيرة من الدم • فناسب ذلك كاتى ، ليكون بجوار المدفأة معها •• وازدادت كراهيتها لحجرتها بالطابق العلوى •

وفى يوم الاثنين الموافق لعيد الفصح ، ذهب

يوسف الى سوق جيمرتون مع بعض الماشـــية ، وفى بعد الظهر كنت مشغولة فى كى بعض الملابس بالمطبخ. وجلس هيرتون صامتا كعادته فى ركن المدخنة وكانت كاتي ترسم بعض الصور بجوار النافذة ، وتســـلى نفسها بترديد بعض الأغنيـات ، وبعـــلامات تعجب هامسة وبنظرات خاطفة نافدة الصبر فى اتجاه هيرتون الذى يواصل تدخنيه . لم اعرها التفاتا لكنى سمعتها تقول :

ـ لقد اكتشفت يا هيرتون أنى سعيدة ، وأرغب أن تكون ابن عمتى حقا ، اذا لم تكن خشنا وعبوســا نحوى !

ولم يكترث هيرتون لكلامها ، فقالت :

ـ هيرتون ! هيرتون ! هل تسمعنى ؟

فاجابها بحدة :

ـ اذهبى عنى !

فاقتربت منه بحذر ، وانتشلت غليونه وقالت :

ـ دعنى أخذ هذا الغليون ٠

وقبل أن يحاول استرداده ، كانت قد كسرته وألقت به في النار ٠ فسبها وأخذ غليونا آخر ، فصرخت به :

ـ كفى ! استمع الى أولا ، لا يمكننى أن اتحدث وهذه السحب تهب على وجهى ٠

فصرخ قائلا :

ـ اذن اخرجى ، ودعينى وحيدا !

ـ لا ٠ لن أخرج وسأجعلك تهتم بى ٠ فأنت ابن خالى ٠ وعندما أنادى عليك يا غبى ، فانا لا أقصد ازدراءك ٠

ـ ليس لى شأن بك ، ولا بسخريتك اللعينة منى ، ولن اتطلع اليك ثانية ٠ واذهبى عنى هذه اللحظة !

فبعدت كاتى تجاه النافذة وهى تجز على شفتها وتقاوم البكاء • فتدخلت قائلة :

– يجب أن تكونا صديقين أنت وابنة عمتـــك يا سيد هيرتون ، وخاصة أنها تأسفت عن سلوكهـــا السابق • وفى مصلحتك أن تقبلها رفيقة لك •

فصرخ هيرتون :

– رفيقة ؟ أنها تكرهنى وتعتقد أننى لا أصــلح لمسح حذائها !

فانفجرت كاتى فى البكاء وقالت :

– لست أنا الذى أكرهـــك ، بـــل انت الذى تكرهنى ! انك تكرهنى أكثر من السيد هيثكليف •

– هذه ليست الحقيقة • فلقد أثرت غضبه بسبب دفاعى عنك مئات المرات ، فى الوقت الذى تهزئين بى وتزدريننى !

فاجابته وهى تمسح عينيها :

ـ لم أعرف أنك دافعت عنى ، ولقد كنت خائفة وغاضبة من الجميع · أما الآن فانى اشكرك ، وارجو أن تغفر لى ·

واقتربت منه وقدمت يدها لمصافحته لكنه لم ينظر اليها ولم يأخذ بيدها · لا بد أن كاتى أخذت هذا الرفض على أنه عدم رغبة فى الاستسلام لا على أنه كراهية ، لانها بعد بقائها مترددة لبرهة انحنت ولثمت خده بقبلة رقيقة ، واعتقدت الشقية اننى لم أرها ، وانسحبت جالسة على مقعدها بجوار النافذة ، فهززت براسى مستنكرة فاحمر وجهها ·

وظل هيرتون حريصا على اخفاء وجهه فى الظلام لبرهة ، وعندما نهض كان متحيرا اين يوجه نظره · وانصرفت كاتى آنئنذ فى تغليف كتاب رقيق بورقة بيضاء ، وربطته بشريط وكتبت عليه « الى السيد هيرتون ايرنشو » ثم طلبت منى أن أقدمه اليه كهدية قائلة :

– وقولى له ، اذا أعجبه ، فسآتى لأعلمه كيف يطالعه ، واذا رفض فسأصعد الى الطابق العلوى ولا أزعجه مرة أخرى ٠

وحملت الرسالة اليه ، وأسندت كاتى رأسـها على ذراعيها فوق المائدة الى أن سمعت صـوت نزع التغليف ، فتسللت وجلست بهدوء بجوار ابن خالها ٠ فارتعد واحمر وجهه ، وهجرته كل وقاحته ، ولم يجد فى البداية الشجاعة ليجيب على نظرتهـا المستفسرة ولو بكلمة واحدة ٠ فقالت له :

– قل انك سامحتنى يا هيرتون ٠ قل !

وتمتم بشىء لم نسمعه ٠

– قل ، وسنصبح صديقين ٠

فأجاب :

– ولكنك ستخجلين منى كل يوم من أيام حياتك ولا أستطيع تحمل ذلك ٠

فقالت وهى تبتسم بابسمه كالسكر وتقترب منه اكثر :

ـ اذن ، فانت لست صديقى ·

ولم أسمع مزيدا من الكلام ، لكننى عندما تطلعت ثانية رأيت وجهين ـ سعيدين مشرقين منكفئين على صفحات الكتاب الهدية ·

وهكذا بدأت الصداقة ونمت بسرعة ، برغم وجود بعض العقبات أحيانا · فهيرتون لم يتمدين برغبته ولم تكن سيدتى الصغيرة مثالا للصبر · الا أنهما استطاعا أن يصبحا فى النهاية صديقين ··

الفصل الخمسون

شجيرتان أو ثلاث

وفى اليوم التالى ، نزلت كاتى قبله وتوجهت الى الحديقة حيث كان هيرتون يقوم ببعض الأعمال الخفيفة • وعندما ناديت عليها لتناول الافطار ، رأيتها وهى تحثهُ على تنظيف رقعة كبيرة من الأرض وازالة بعض شجيرات الفاكهة منها ، واصبحا مشغولين فى التخطيط لاحضار بعض النباتات من مزرعة تراش كروس •

وانزعجت من التغيير الذى تم فى فترة نصف ساعة • وكانت شجيرات الفاكهة هى كنوز يوسف ، وقامت هى بغرس مختاراتها من الزهور فى وسطها •

فصحت قائلة :

ـ آه ! سيرى ذلك السيد ، وسنرى انفجارا جميلا ؟

فاجاب هيرتون متحيرا :

ـ لقد نسيت أنها تخص يوسف ، ولكنى سأخبره بأنى الذى فعلت ذلك ٠٠

كنا نتناول طعامنا دائما مع السيد هيثكليف ٠ وكنت أقوم بعمل الشاى والخدمة على الأكل ٠ وكانت كاتى تجلس عادة بجوارى ، ولكنها اليوم تسللت اقرب لهيرتون ٠ فقلت لها نصيحتى الهامسة ونحن ندخل الغرفة :

ـ لاحظى الا تكثرى من الكلام والاهتمام بهيرتون لأن ذلك سيضايق السيد هيثكليف بالتاكيد وسيغضب منكما ٠

وبعد دقيقة واحدة اتجهت نحوه ، واخذت ترشق الزهور فى طعامه ٠٠

ولم يجرؤ هو على الكلام ، ولكنها اســتمرت حتى لم يعد بامكانه أن يمسك نفسه عن الضحك . فنظرت معترضة ورنت هي في اتجاه السيد الذى كان يبدو مشغول الفكر ..

ولكنه في النهاية التفت اليهمـا ، فقابلت كاثى نظرته بنظرتها المعتادة من الخوف المشـوب بالازدراء فقال :

ـ من حسن الحظ انك لست في متناول يدى . لماذا تنظران الى هكذا ؟ اخفضا ابصاركما ! لقد ظننت انى استطعت أن أمنعكما من الضحك .

فاجاب هيرتون .

ـ أنا السبب في الضحك !

فنظر اليه هيثكليف لبرهة ، ثم عاد الى تنـاول افطاره في سكون . وانتهينا تقريبا من طعامنا عنـدما ظهر يوسف بالباب ، باديا بكل وضوح على شفتيه المرتعشتين وعينيه الغاضبتين أنه اكتشف الهجوم الذى

حدث على شجيراته الثمينة · وكان من الصعب فهم حديثه · واستمع هيثكليف لشكواه حتى نفد صبره ، فاستفسر أخيرا :

ـ هل هذا الأحمق سكران ؟ هيرتون ، هل أنت الذى أخطأت فى حقه ؟

فأجاب الشاب :

ـ لقد نزعت شجيرتين أو ثلاثا ·

ـ ولماذا نزعتهم ؟

فأجابت كاتى :

ـ اردنا أن نزرع بعض الازهار هناك · وأنا من أستحق اللوم ·

ـ وأنت ، من سمح لك بذلك ؟ وأنت يا هيرتون من أمرك أن تطيعها ؟

فسكت الشاب وأجابته كاتى :

ـ كان لا يجب عليك أن تهتم لاستخدامى بضعة

امتــار من الأرض لتجميلها ، بينما استوليت أنت على أرضى كلها ٠٠ !

– أرضك ! لم يكن لك أرض مطلقا !

– واموالى !

– اسكتى ! انهى طعامك واذهبى !

فاضافت قائلة :

– وأرض هيرتون وأمواله ٠ نحن صديقين الآن .، وساخبره بكل ما فعلته !

وبدا على هيثكليف عدم القدرة على الرد لفترة ، وشحب لونه ناظرا الى كاتى بتعبير كراهيــــة قاتل ، ثم وقف بشكل مفاجىء ٠ فقالت له :

– اذا ضربتنى ، فسيضربك هيرتون ، لذلك فمن الأفضل أن تجلس !

فحاول هيرتون هامسا أن يحثها على الذهــاب ، لكنها اضافت قائلة :

ـ لن يطيعك بعد ذلك ، أيها الشرير ، وسيكرهك قدر ما أكرهك !

فتمتم الشاب :

ـ اسكتى ! لا أريد أن أسمعك تحدثينه هكذا !

ـ لكنك لن تسمح له بان يضربنى !

فهمس لها قائلا :

ـ تعالى ·· تعالى ·· !

لكن هيثكليف كان أمسك بها ووضع يده فى شعرها ، وحاول هيرتون أن يخلصها منه متوسلا اليه الا يؤذيها هذه المرة · وبرقت عينا هيثكليف وبدا أنه على وشك تمزيقها اربا ·· واندفعت لانقاذهـــا عندما تراخت أصابعه من على خصلات شعرها فجأة ، ثم ســحب يده ووضعهـــا فوق عينيه ووقف للحظة ليتحكم فى نفسه والتفت الى كاتى وقال كاظما غيظه :

ـ أرجو أن تتجنبى اثارتى ، والا سوف أقتلك فى احدى المرات ! اذهبى الى نيللى ، وابقى معها · أما

هيرتون ارنشو ، لو رأيته ينصاع لك فسأجعله بـلا مأوى • انّ حبك سيجعله متسولا ! اتركونى كلكم !

فأخذت كاتى وخرجنا ، وكانت مسرورة لمقاومتها له • وعند الغداء ، نصحتها ان تتنـــاول طعامها فى الطابق العلوى ، ولكنه عندما رأى مقعدها خاليا أرسلنى لأنادى عليها • ولم يتكلم مع أحد منا •• ولم ياكل الا القليل ثم خرج قائلا بانه لن يعود قبل المساء •

الفصل الحادى والخمسون

نهاية هزيلة لكفاحى

واثناء غياب هيثكليف طـــول اليـــوم ، بقى الصديقان الجديدان فى المنزل • وسمعت هيرتون يكلم كاتى بحزم عند سردها قصة تصرف هيثكليف تجاه أبيه ، وأكد لها بانه لن يسمح لسماع كلمة واحـــدة تقال فى حق هيثكليف • ومهما كان تصرف هيثكليف فسيبقى بجانبه • فاحست كاتى بالحرج خصـــوصا عندما سالها هل تحبه أن يتحدث بسوء عن أبيها •• عندئذ فهمت الصلة الوثيقة التى تربط بين هيرتون وسيد مرتفعات وذرينج • صلة اقوى من أن يحطمهـا

العقل ·· اذ كونتها العادة ، ومن القسوة محاولة فصامها ·

ومنذ ذلك الحين ، أبدت روحا طيبة ، وامتنعت عن التعرض لهيثكليف سواء بالشكوى أو بتعبيرات الكراهية ، واعترفت لى عن أسفها لمحاولتها اثارة الكراهية بينه وبين هيرتون ·

وعندما زالت هذه الغمة ، عاد الصديقان الى انشغالهما كتلميذ ومعلمة · وكنت اشعر بالراحة عندما أجلس معهما ، وأراقبهما حتى أننى كنت لا اشعر بمرور الوقت · وأحس انهما قطعة منى · كنت فخورة بأحدهما لمدة طويلة والآن ، فانى على يقين بأن الآخر يستحق هذا الاحساس على قدم المساواة ·

وبسرعة ازالت امانته ، وطبيعته الذكية الدافئة غشاوة الجهل والانحطاط الذى نشأ وجبل عليهما ، وأزاد من تقدمه المضطرد اخلاص كاتى وتشجيعها له · لقد تغير تماما ، وأصبحت تصرفاته على درجة كبيرة من النبل ، وأكاد لا أصدق أنه هو نفس الشخص

الذى رأيته يوم اكتشافى وجـــود كاتى بمرتفعـات وذرينج بعد ذهابها بجوارها الى الصخور ٠

وبعد مغيب الشمس عاد الســـيد هيثكليف ٠ ودخل علينا من الباب الأمامى دون أن نتوقعه وقبل أن نرفع رؤوسنا نحن الثلاثة ٠ كان منظرنا كله ســـلام وبهجة ، فأحسست بالأسى لو انقلب هذا الجـــو الى توبيخ يوجه لنا ٠٠ وانعكس ضوء المدفأة الأحمر بلطف على راسيهما وأبان عن شغف الأطفال على وجهيهما ٠ فبالرغم من أنه فى الثالثة والعشرين وهى فى الثامنة عشر ، الا أن كلا منهما لديه الكثير مما يتعلمه ويشعر به ، لذلك كانا كطفلين يحبوان فى المعرفة معا ٠

ورفعا رأسيهما معا ، فبدا تشابه عيونهما وهى نفس عيون كاترين ايرنشو ٠ ولا يوجد تشابه آخر فى كاتى الحالية الا جبينها العريض٠ اما هيرتون فكان التشابه واضحا فى ملامح وجهه اكثر وأكثر ٠٠ ربما لأن عقله كان نشيطا فوق العادة ٠ واظن أن هـــذا

التشابه أثار هيثكليف الذى اتجه نحو المدفأة متكدرا بشكل ملحوظ • ثم نظر الى الشاب وأخذ الكتاب من يده ، وألقى بنظرة سريعة على الصفحة ثم أعاده اليه دون ابداء أية ملاحظة ، واشار الى كاتى بالخروج ، فتبعها هيرتون على الفور • وهممت بالخروج أيضا لكن هيثكيف طلب منى البقاء ، ثم قال بعد برهة :

– انها نهاية هزيلة ، اليس كذلك ؟ نهاية سخيفه لكفاحى • لقد وجهت كل طاقاتى فى التخطيط لتدمير الأسوتين ، وعندما أصبح كل شىء جاهزا •• أجـــد الارادة فى التنفيذ قد اختفت ! فاعدائى القدامى لـــم يهزمونى • والآن هذا هو الوقت المناسب للانتقام من ذويهم •• ويمكننى القيام بذلك ، ولا يستطيع أحد أن يمنعنى ! لكن ما هى الفائدة ؟ •• ان هـــذا ليس كرما منى •• بل لقد فقدت قوة الاستمتاع بتدميرهما •• وانى كسول لأدمر دون مقابل •

نيللى •• ان تغييرا غريبا يبدو لى عن كثب •• انى أقف فى ظله حاليا •• انى لا أهتم بحياتى اليومية

حتى أكاد لا أتذكر المأكل والمشرب · لكن هذين الاثنين فقط هما اللذان لهما ظهور واضح عندى· وهذا الظهور يسبب لى الألم ·· أما هى ، فلن أتكلم عنها ، ولا أرغب فى التفكير فيها · فوجودها يكاد أن يسبب لى الجنون ·· أما هو فتأثيره على مختلف ·

من خمس دقائق بدا هيرتون كصورة حية لشبابى انى أكن له مختلف المشاعر · أول كل شىء فان هذا الشبه الكبير بينه وبين كاترين يربطه معهـا فى عقلى بشكل مخيف · انى لا أستطيع أن أنظر الى الأرض دون أن ارى وجهها يتشكل على الأحجار ! فى كل سـحابة فى كل شجرة أراها ! وكثيرا ما تخدعنى وجوه رجال ونساء عاديين أظن أنهم يشـبهونها ·· العـالم كله مجموعة مرعبة من التنبيهات فى أنها موجودة ·· وفى أننى قد فقدتها !

كان ظهور هيرتون هو شبح حبى ، الروح التى لا تموت للمحاولات الشرسة للتمسـك بحقى ·· لانحطاطى وكبريائى ·· لسعادتى وشقائى ··

لكن ، انه من الجنون أن أقول لك أفكارى !

فقلت منزعجة لسلوكه :

– وماذا تعنى بالتغيير يا سيد هيثكليف ؟

– سوف أخبرك بذلك ، عندما يحين الوقت ..

لم يكن فى حالة تنذر بفقدان أعصابه ولا فى حالة احتضار . وحسب حكمى ، كان فى منتهى القـــوة والصحة ، أما بخصوص خياله ، فكان لديه دائما منذ الطفولة متعة فى التخيلات الغريبة .. ربما تكون لديه أفكار غريبة ثابتة عن موضوع حبه الضائع ، لكنـــه فى جميع الموضوعات الأخرى كان عقله حادا وطبيعيا وسألته :

– هل تشعر بأعراض مرض ما يا سيدى ؟

– كلا يا نيللى .. !

– اذن ، فأنت تخاف الموت ؟

– أخاف ؟ كلا ! انا لا أخاف الموت ولا آمل فيه ولماذا اخشاه ؟ فبقوتى وطريقة حياتى الصحية يجب

ان أبقى على هذه الأرض لآخر شعرة سوداء فى رأسى ! ومع ذلك لا أستطيع ان استمر على هذه الحالة ! على ان اذكر نفسى لأتنفس ، او ربما اذكر قلبى ليدق ! ان لدى رغبة واحدة وكيانى كله شغوف لتحقيقها ! ‥ وأنا متأكد بانها ستتحقق ‥ وقريبا ‥ لانها أتت على وجودى ٠ آه يا الهى ! انه لصراع طويل ، أتمنى لو ينتهى !

وأخذ يذرع الحجرة ذهابا وايابا بشكل قلق ، متمتما باشياء مرعبة حتى انى بدأت أؤمن بما قاله عنه يوسف من أن ضميره قد حول قلبه الى ملاذ ممكن للعذاب ‥

الفصل الثانى والخمسون

التغيير ياتى

وبعد تلك الأمسية أخذ هيثكليف يتجنب لقاءنا على مائدة الطعام لعدة أيام · ومع ذلك لم يكن يوافق أن يتناول هيرتون أو كاتى طعامهما فى مكان آخر · كان لا يحب هذا الاستسلام التام لأحاسيسه ، ويفضل أن يغيب ويتناول طعامه مرة كل أربع وعشرين ساعة ·

وذات ليلة ، بعد أن خلد الجميع للنوم ، سمعته ينزل ويخرج من البـاب الأمامى · وفى الصـبـاح لم يعد ·· كان ذلك فى شــــهر ابريل والطقس حلو ودافىء ، والعشب أخضر وشجرتا التفاح عند الجدار الجنوبى مزدهرتين تماما · وأصرت كاتى على أن أحضر

كرسيا وأقوم بعملى فى الخارج ، كما حثت هيرتون على ان يحضر ويرتب حديقتها الصغيرة التى نقلاها الى هذا الركن لارضاء يوسف • واستمتعت بالسماء الزرقاء ، وبالشمس الدافئة ، عندما عادت سيدتى الصغيرة من جانب البوابة ، حيث كانت تحضر جذور ازهار لوضعها كفاصل وأخبرتنا بأن السيد هيثكليف قادم • وقالت متحيرة :

ــ وكلمنى • لقد طلب منى ان ابتعد •• لكنه يبدو مختلفا تماما حتى أننى حملقت فيه طويلا •

فسال هيرتون :

ــ كيف ؟

ــ مشرق ومبتهج •• لا ، بل أكثر من ذلك !

وقف هيثكليف عند الباب المفتوح • فبدا شاحبا مرتعد الأوصال ، لكن عينيه تشــعان فرحا غريبـا ، فسالته :

ــ هل ترغب فى تنــاول الافطار ، لا بد أنك جائع •

فاجاب بنوع من الازدراء :

– كلا ، انني لست جائعا !

– لا أعتقد أنه من الصواب التجول خارج البيت أثناء الليل ، خاصة فى هذا الفصل الرطب · سيسبب لك نزلة برد سيئة ·

– لا شيء لا أستطيع تحمله ·

ولاحظت أنه يتنفس تنفسا سريعا كالقط ·

وفى منتصف النهار ، جلس معنا على الغداء ، وملأت له صحنا ، وقدمته له · أخذ السكين والشوكة وهم بالأكل ، ولكنه ما لبث أن اعادهما فجأة الى المائدة ، وراح ينظر بلهفة نحو النافذة ، ثم نهض وخرج ، ورأيناه يسير فى الحديقة ، فقال هيرتون أنه سيذهب ويسأله عن سبب عزوفه عن تناول الغداء · وعندما عاد سألته كاثى :

– ماذا ؟ هل سيأتى ؟

– كلا ، لكنه ليس جائعا ، وطلب منى أن أعود اليك ، وكيف أرضى عنك بديلا ؟

فوضعت صحنه بجانب المدفأة ليحتفظ بدفئه ٠
وبعد ساعتين تقريبا عاد هيثكليف بنفس الفرح غير الطبيعى المرسوم على وجهه الأسمر ، وتظهر أسنانه من لحظة لأخرى كاشفة عن شبه ابتسامة ، وكان جسمه يرتعش ، ليس كمن يرتعش من البرد أو الضعف ، ولكن كارتعاشة الوتر عند لمسه ، فقلت له :

ـ هل سمعت أخبارا سارة ، ياسيد هيثكليف ؟ انك تبدو منفعلا بشكل غير عادى ٠

ـ ومن أين تأتينى الأخبار السارة ؟ وعلى فكرة يانيللى دعينى أتوســـل اليــك أن تحذرى هيرتون والأخرى أن يبتعدا عنى ٠ أريد هذا المكان لأختلى فيه ٠

ـ اخبرنى أولا ، لماذا تبدو غريبا هكذا ، ياسيد هيثكلف ؟

ـ ســـأخبرك ٠٠ فى الليلة الماضية كنت على شفى العذاب ، واليوم فأنا على مقربة من سمائى ٠ لقد وقعت عينـــاى عليها ٠٠ ثلاثة أقدام فقط تفصلنى عنها ! والافضل أن تذهبى من هنا الآن ٠

وأخذت غداءه الذى لم يلمسه ، وأنا أكثر حيرة عن قبل • ولم يغادر المنزل ثانية ، وفى الساعة الثامنة حملت شمعة وطعام العشاء له • فوجدته مستندا على حـافة النافذة المفتوحة • والنـار تحولت الى رماد ، والحجرة مملوءة بالهواء الهادىء الرطب ، ولذلك كان خرير جدول الماء بقرية جيمرتون تصل الى سمعى • بدأت أغلق النوافذ ، الواحدة تلو الأخـــرى ، الى أن وصلت الى نافذته ، فسالت لألفت انتباهه :

ـ هل أغلق هذه النافذة ؟ •

ومض ضوء على وجهه عندما تكلمت • يالها من صـــدمة مخيفة التى استولت على ! اذ بدت لى هذه العيون السوداء الغائرة وتلك الابتسامة وذلك الشحوب الخاص بالموت ! انه ليس بالسيد هيثكليف ، بل روح شريرة ، ومن فزعى تركت الشـــمعة تنطفىء ، وقال بصوته المعتاد :

ـ نعم ، اغلقيها •• ما هذا الارتباك •• هدئى من روعك واحضرى شمعة أخرى !

أسرعت خارجة فى حالة خوف أحمق ، وطلبت من يوسف أن يأخذ شـمعة اليه · وذهب وعاد فى الحال وطعام العشاء فى يده قائلا أن سـيده سيأوى الى الفراش ، ولن يأكل حتى الصباح ·

وسمعناه يتوجه الى الطابق العلوى · ولم يدخل الى حجرته العادية ، بل توجه الى الحجرة التى تحتوى على الفراش ذى الخزانة الخشـبية ، حيث اعتادت كاترين ايرنشو ان تنام · كانت ليلة مزعجة بالنسبة لى · أخذت أسـتعيد ، فى عقلى ، الحيـاة والطبيعة الغريبـة لهيثكليف ، متذكرة كيف تكفلت برعايته طفلا ، وراقبته وهو ينمو ويكبر ، **وقلت لنفسى** :

ـ ولكن من أين جـاء ، هذا الشىء الأسـمر الصغير ، الذى عاش بحماية رجل طيب ليسبب دمار عائلته ؟

وبدأت أتخيل ، وأنا شبه نائمة ، والديه ···

الفصل الثالث والخمسون

لقد وصلت تقريبا الى سمائى

وفى الصباح التالى ، جهزت طعام الأفطار كعادتى ، وحيث أن كاتى وهيرتون فضلا تناول أفطارهما فى الخارج ، لذا جهزت طعاما بسيطا لهما . وعند دخولى ثانية وجدت السيد هيثكليف بالطابق السفلى . كان يتحدث مع يوسف بخصوص بعض أعمال الفلاحة ، فأعطى له توجيهات واضحة مضبوطة تخص الموضوع الذى يناقشه معه ، ولكنه كان يتحدث بسرعة ، ويلتفت برأسه جانبا باستمرار ، وعلى وجهه نفس التعبير الثائر .

وعندما غادر يوسف الحجرة ، جلس على مقعده

المعتاد ، فقدمت له القهوة ، ووضعتها أمامه ، فقربها اليه ثم استند بذراعيه على المائدة وراح ينظر الى الجدار المقابل ، ومثبتا عينيه المحمومتين على مكان محدد باهتمام وشـــغف لدرجـة انه توقف عن التنفس لبرهـة ·
فصرخت به وأنا أدفع بالخبز ليلامس يده :

ـ هيا ، كل واشرب الآن وهو ساخن ·

فلم يلاحظنى ، ولكنه ابتسم ، **فصرخت ثانية :**

ـ سيد هيثكليف ! سيدى ! لا تفعـل هكذا ، أتوسل اليك ، لا تحملق وكأنك ترى شبحا !

فأجاب :

ـ لا ، اتوسل اليك لا تصرخى عاليا · التفتى ، واخبرينى ، هل نحن وحدنا ؟

ـ طبعا ·

وبحركة من يده ، أزاح الطعام من أمامه ، ومال للأمام ليحملـق وهو على راحته ورأيته لا ينظـر الى الحائط ، كان يبدو أنه يثبت عينيه على شىء ما ضمن

مسافة متر أو مترين · ومهما كان هذا الشيء ، فكان هناك اتصــال بينهمــا يبعث البهجــة والألم بأقصى حديهما ، على الأقل كان التعبير على وجهه يوحي بذلك· ولم يكن هذا الشيء ثابتا أيضــا ، فعيناه تتبعانه في مراقبة لا تمل ، وحتى وهو يتحدث معي لم تبرح عيناه هذا الشيء وذكرته بطعامه ، ولكن دون جدوى !

جلست ، نموذجا للصــبر ، محاولــة أن ألفت انتباهه ، حتى تضايق ونهض خارجا · وغادر المنزل ، مارا ببطء عبر ممر الحديقة واختفى فيما وراء البوابة·

وزحفت الساعات ، وجاء ليل آخر ، ولم أذهب للنوم الا في ساعة متأخرة ، وعندما ذهبت لم أستطع النوم · وعاد هيثكليف بعد منتصف الليل · وأغلق على نفسه باب حجرة الجلوس · وأخذت أنصت ، وبعد فترة ارتديت ملابسي ونزلت للطابق السفلي ·

استطعت سماع خطوات هيثكليف القلقة وهو يقطع الحجــرة ذهابا وايابا · وكثيرا ما كــان يكسر السكون أنينه وتمتمته بكلمات قليلة أيضا · وكانت

الكلمة الوحيدة التي استطعت التقاطها هي اســـم كاترين مرتبطا ببعض كلمات الحب أو المعاناة وكان ينطقها ، وكأنه يتحدث لشخص حاضر !

لم تكن عندي الشجاعة لأدخل عليه ، لذلك قمت بعمل ضجة وأنا أحرك نار مدفأة المطبخ . ففتح الباب في الحال ، وقال :

ــ نيللي ، تعالى هنا . هل ظهر نور الصباح ؟!

فاجبت :

ــ لقد دقت الرابعة صباحا ..

ــ تعالى واشعلي لي نارا !

وأخذ يتجول جيئة ورواحـا متنفسا بسرعة ، وقال :

ــ عندما يظهر النهار ، سأستدعي جرين المحامي، أريد ان استفسر منه عن بعض الشئون القانونية وأنا مازلت أتصرف بهدوء . اني لم أحرر وصيتي بعد ،

ولا أعرف كيف أترك ممتلكاتي . آه لو كان بامكاني تدميرها من على سطح الأرض !

فقلت :

— لو كنت مكانك ، ما تكلمت هكذا . اترك موضوع وصيتك لبعض الوقت . فسوف تعيش لتأسف على كثير من أعمالك الظالمة ! انك في حالة عصبية ، والطريقة التي عشت بها هذه الأيام الثلاثة الماضية تذهب بقوة أي انسان . تناول شيئا من الطعام وخذ قسطا من الراحة .

— أيمكنك أن تحثني انسان يصارع الماء أن يرتاح وهو على بعد متر واحد من الشاطيء ؟ لابد أن أصل الشاطيء أولا وعندئذ سأرتاح . حسنا ، انسى موضوع السيد جرين . أما بخصوص أفعالي الظالمة ، فأنا لم اظلم أحدا ، ولا آسف على شيء . فأنا سعيد جدا ، ومع ذلك فلست سعيدا بما فيه الكفاية .. فسعادة روحي تقتل جسدي ، ولكنها لاترضى نفسها !

ـ أسعيد أنت حقا يا سيدى ؟ لو أنك تستمع الى دون أن تغضب ، لأسديت لك النصيحة !

ـ اسديها الى !

ـ يجب أن تعلم يا سيد هيثكليف ، انك منذ أن كنت فى الثالثة عشرة من عمرك وأنت تحيا حياة أنانية غير متدينة • هل من الضرر حاليا أن تبعث للقس ليرشدك ويساعدك على تصفية قلبك ؟

ـ اننى ممتن لك يانيلل لانك ذكرتينى بالطريقة التى أرغب أن أدفن بها • شيعونى الى مقابر الكنيسة فى المساء على أن أرقد بجانبها • وأطلب منك أنت وهيرتون أن تتابعا جثتى ، وتتأكدا من أن حفار القبور قد أطاع تعليماتى بخصوص التابوتين ! ولا حاجة لحضور القس ولا الى ترتيل الصلاة على قبرى • فلقد وصلت تقريبا الى سمائى • وعندئذ سمع بقية أهل البيت يستيقظون ، فنهض وذهب الى حجرته •

الفصل الرابع والخمسون

نهاية هيثكليف

وبعد الظهر ، حضر هيثكليف الى المطبخ ، بينما كان يوسف وهيرتون يقومان بعملهما ، وبنظرة متوحشة طلب منى أن أجلس معه ، حيث يريد من يرافقه ، فرفضت قائلة له بكل صراحة بأننى أصبحت أخاف من كلامه وتصرفاته الغريبة . **فقال :**

ـ أعتقد انك تظنيننى من الأرواح الشريرة ، شيئا مفزعا ليعيش فى بيت محترم .

ثم التفت نحو كاتى وأضاف متندرا :

ـ تعالى يافتاة ، فلن أؤذيك . لقد جعلتك

تكرهيني • حسنا ، هنـــاك واحدة لن تتراجع عن مرافقتي ! آه •• يا الهي •• انها بلا رحمة ، انهـــا فوق طاقة البشر حتى تتحملني أنا !

ولم يطلب من أي أحد آخر أن يبقى معه • وعند الغروب ذهب الى حجرته ، وسمعناه طوال الليل وهو يئن ويتمتم لنفسه • وكان هيرتون قلقا عليه ، وطلبت منه أن يســـتدعي الطبيب • وعنـدما عاد ، رفض هيثكليف أن يفتح الباب ، وقال أنه أفضل ، ويريد أن نتركه وحيدا ، لذلك غادر الدكتور كنيث البيت دون أن يرى المريض ••

كانت الليلة التالية ممطرة ، وبينما كنت أقوم بجولتي الصباحية حول المنزل لاحظت نافذة حجرته مفتوحة والمطر ينهمر بشـدة داخلهـــا • فظننت أنه مستيقظ ، اذ لا يمكن أن يكون في فراشه بينما المطر ينزل عليه بهذه الشدة • فقررت أن أدخل وأنظر •

ونجحت في الدخـول بمفتـاح آخر ، فوجدت السيد هيثكليف مستلقيـا على ظهره ، والتقت عينـاه

بعينى فى ثبات وحدة ، فشعرت بالخوف ، ثم تخيلته يبتسم · لم أفكر مطلقا فى انه قد فارق الحيـــاة ، لكن المطر غسل وجهه وحلقه ، والفراش كان مبتـلا تمـاما · ووضعت أصـــابعى على اخـدى يديه ، ولم أعد أشك ·

وصرخت على يوسـف ، الذى جـاء وركع على ركبتيه ، وأعاد الشكر بأن السـيد القانونى والعائلة القديمة ستعود ملكيتهم لحقوقهم مرة أخرى ·

وشــــعرت بالاضطراب والانزعاج لهذا الحدث المفزع ، وعادت ذاكرتى الى الأيـام الخوالى بنـوع من حزن لايحتمل ، أما هيرتون المسكين ، أكثر شـخص أخطأ فى حقه ، فكان الشخص الوحيد الصـــادق فى معاناته ، فقد جلس ، طول الليـل ، قرب هيثكليف وراح يقبل وجهه القاسى الهازىء الذى يتجنب الجميع النظر اليه ، وعانى حزنا قويا نابعا بشكل طبيعى من قلب كريم ·

وتحير الطبيب فى تسمية المرض الذى مات السيد

بسببه ٠٠ ودفنـاه ، حسب وصيته ٠ وقام هيرتون الذى تغطى وجهه بسـيل من الدموع بوضـع الغطاء الأخير من التربة المزروعة بالحشائش فوق المقبرة ٠ آملا أن ينام ساكنه نوما هنيئا ٠

أما القرويون اذا سألتهـم ، فسيقسمون بأنه يسير ٠٠ ومنهم من يقول بأنهم قابلوه قرب الكنيسة ، وفى منطقة المستنقعات ، بل وحتى داخل هذا المنزل٠٠ قصص حمقاء ٠٠ ربما !!

ومـع ذلك فيوسـف يعلن أنـه راى الاثنين — هيثكليف وكاترين — وهما يطلان من غرفة النوم فى كل ليلة ممطرة منذ وفاته ٠ وحدث لى شيء غريب منذ شهر تقريبا ٠٠ كنت متوجهة الى المزرعة ، ذات مساء راعد حالك السواد ، وعند انعطافى من المرتفعات ، قابلت ولدا صغيرا مع اغنامه الثـلاث ، وكان يبـكى بشدة ، **فسألته :**

— ماذا بك يا فتى ؟

فقال باكيا :

ــ هيثكليف وامرأة أخرى موجودان هنــاك ، انني لم أجرؤ على المرور !

ولم أر شيئا ، لكن رفضت الأغنام ، وكذلك الفتى المرور من هناك ، لذلك أشرت اليه بأن يتخذ الطريق السفلى ٠ ربما تخيل أشباحا أثناء عبوره المستنقعات بمفرده ، وذلك من جراء حديث أبويه وما يردده رفاقه ٠٠ ومع ذلك، فلقد أصبحت أخشى الخروج فى الظلام، كما أصبحت لا أحب البقاء وحدى فى هذا البيت ٠٠ وسأكون سعيدة عندما يتركونه للعودة للمزرعة ٠٠

النهــاية

وداعا لمرتفعات وذرينج

الكلمات الأخيرة للسيد لوكوود .

الفصل الخامس والخمسون

الموتى فى سلام

وسكتت السيدة دين عن الكلام بعدما روت قصتها ، **فسألتها :**

ـ ومتى سيعودون للمزرعة ، اذن ؟

ـ عندما يتم الزواج ، وســيكون ذلك فى عيد رأس السنة ·

ـ ومن سيسكن هذا البيت ؟

ـ سيبقى يوسف مع شخص آخر ، وسيعيشان فى المطبخ · أما بقية المنزل فسيغلق ·

فقلت معلقا :

– لكى تستخدمه الأشباح كسكنى لهم ·

فقالت نيلل وهى تهز براسها :

– كلا ، ياسـيد لوكوود ، اعتقـد أن الموتى يرقدون فى سلام ·

وفى هذه اللحظة ، فتحت بوابة الحديقة وظهر من كانا يتجولان عائدين · **فقلت :**

– انهما لايخشيان شيئا !

وعندما خطا الى الباب وتوقفا ليلقيا نظرة أخيرة على القمر ، أو بالأحـرى على بعضهما البعض فى ضوء القمر ، شعرت برغبة فى تجنبهما ·· فأسرعت مودعا السيدة دين ، وعبرت من المطبخ وانصرفت ··

وفى طريقى للعودة انعطفت فى اتجـاه مقابر الكنيسة ، فاكتشفت فور تطلعى الأحجـار الثلاثة على قمة المقابر عند المنحدر التـالى بمنطقـة المستنقعات :

كان القبر الأوسط رمادى اللون تغطى معظمه بالنباتات البرية ، وكان قبر ادجار لنتون مغطى بالعشب فقط ، أما قبر هيثكليف فما يزال أجرد •

وبقيت بجوارهم ، تحت السماء اللطيفة ، وراقبت الحشرات تهيم بين النباتات والزهور البرية • وأنصت الى النسيم الرقيق متنفسا عبر الأعشاب • وتعجبت كيف يتخيل أى شخص عدم الراحة للنائمين تحت هذا التراب الهادىء •

رقم الإيداع ٩٧ / ٧٧٦٥
I. S. B. N. 977 - 01 5263 -3